مهرجان القراءة للجميع



مكتبة الأسرة

توفيق الحكيم

أرنى الله

الأعمال الإبداعية





الهيئة المصرية
العامة للكتاب

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى : تطلع

التقنية: خامات مختلفة على ورق

المقاس: ٤٥ × ٨٤ سم

يحيى حجى (١٩٥٠ -)

فنان مصرى، تخرج فى كلية الفنون الجميلة بالقاهرة (قسم التصوير) ١٩٧٥، ماجستير ١٩٨٤، أقام معرضا خاصاً لأعماله فى أتيليه القاهرة ١٩٧٩، وشارك فى معرض جماعة فجر الفنية ١٩٨٨، ويشارك فى العديد من المعارض الجماعية والبيناليات، وقد عمل بالصحافة المصرية (روز اليوسف - مؤسسة التعاون)، وقام بتصميم ديكورات وملابس المسرحيات فى حقبة الثمانينات، وهو يقيم حاليا فى إيطاليا. وله مقتنيات بمتحف كلية الفنون الجميلة بالقاهرة، وقصر المؤتمرات بمدينة نصر، ومتحف الفن الحديث بالقاهرة، بالإضافة إلى المجموعات الخاصة بمصر والخارج.

محمود الهندى

أرنى الله

توفيق الحكيم

ارنى الله

كان فى سالف العصر والأوان رجل طيب السريرة صافى الضمير رزقه الله طفلا ذكى الفؤاذ ذلق اللسان ... فكانت امتع لحظاته ساعة يجلس إلى طفله يتحادثان كأنهما صديقان . . فيلحظ كأن فارق السن وفاصل الزمن يرتفع من بينهما كستارة وهمية من حرير فاذا هما متفقان متفاهمان لهما عين العلم وعين الجهل بحقائق الوجود وجواهر الأشياء..

نظر الرجل يوماً إلى طفله وقال :

ـ شكراً لله ! . . أنت لى نعمة من الله ! . .

فقال الطفل .

ـ إنك ياأبت تتحدث كثيراً عن الله . . . أرنى الله ! . . .

ـ ماذا تقول يابنى ؟ ! . .

لفظها الرجل فاغر الفم ، ذاهل الفكر ، فهذا طلب من الطفل غريب لا يدرى بم يجيب عنه . . وأطرق ملياً . . ثم

التفت إلى ابنه مردداً كالمخاطب نفسه :

— تريد أن أريك الله ؟ .

— نعم . . . أرنى الله ! . .

— كيف أريك مالم أره أنانفسى

— ولماذا يا أبت لم تره ؟

— لأنى لم أفكر فى ذلك قبل الآن . .

— وإذا طلبت إليك أن تذهب لتراه .. ثم ترينى إياه . .

— سأفعل يا بنى . . سأفعل .

ونهض الرجل . . ومضى لوقته وجعل يطوف بالمدينة يسأل الناس عن بغيته ، فسخروا منه ، فهم مشغولون عن الله ومشاهدته بأعمالهم الدنيوية . . فذهب إلى رجال الدين فحاوروه وجادلوه بنصوص محفوظة وصيغ موضوعه فلم يخرج منهم بطائل . . فتركهم يائساً . . ومشى فى الطرقات مغموماًيسائل نفسه ؟ أيعود إلى طفله كما ذهب خلوى اليد مما طلب ؟ . وأخيراً عثر بشيخ قال له :

— « اذهب إلى طرف المدينة تجد ناسكاً هرماً لا يسأل

الله شيئاً إلا استجاب له . . فربما تجد عنده بغيتك » ! . .

فذهب الرجل تواً إلى ذلك الناسك . وقال له :

— جئتك فى أمر أرجو أن لا تردنى عنه خائباً .

فرفع إليه الناسك رأسه قائلا بصوت عميق لطيف :

— أعرض حاجتك ! .

— أريد أيها الناسك أن ترينى الله ! . .

فأطرق الناسك وأمسك لحيته البيضاء بيده وقال :

— أتعرف معنى ما تقول ؟ .

— نعم . . أريد أن ترينى الله ! .

فقال الناسك بصوته العميق اللطيف :

— أيها الرجل . . ! إن الله لا يرى بأدواتنا البصرية . . ولا يدرك بحواسنا الجسدية .. وهل تسبر عمق البحر بالأصبع التى تسبر عمق الكأس ؟! . .

— وكيف أراه إذن ؟.

— إذا تكشف هو لروحك .

— ومتى يتكشف لروحى ؟ .

— إذا ظفرت بمحبته .

فسجد الرجل وعفر التراب جبهته وأخذ يد الناسك وتوسل إليه قائلا :

— أيها الناسك الصالح . . سل الله أن يرزقني شيئا من محبته .

فجذب الناسك يده برفق وقال :

— تواضع أيها الرجل واطلب قليل القليل . .

— فلأطلب إذن مقدار درهم من محبته . .

— يا للطمع ! . . هذا كثير . .

— ربع درهم إذن . .

— تواضع . . تواضع . .

— مثقال ذرة من محبته .

— لا تطيق مثقال ذرة منها

— نصف ذرة إذن . .

— ربما . .

ورفع الناسك رأسه إلى السماء وقال :

— يارب ارزقه نصف ذرة من محبتك ! . .

وقام الرجل وانصرف . . . ومرت الأيام ، وإذا أسرة الرجل وطفله وأصحابه يأتون إلى الناسك ويفضون اليه بأن الرجل لم يعـــد إلى منزله وأهله منذ تركه ، وإنه اختفى ولايدرى أحد مكانه . . . فنهض معهم الناسك قلقا ، ولبثوا يبحثون عنه زمنا إلى أن صادفوا جماعة من الرعاة قالوا لهم : إن الرجل جن وذهب إلى الجبال . ودلوهم على مكانه . . فمضوا إليه فوجدوه قائماً على صخرة . . . شاخصاً ببصره إلى السماء فسلموا عليه فلم يرد السلام . . فتقدم الناسك إليه قائلا .

— انتبه إلى ... أنا الناسك . . فلم يتحرك الرجل فتقدم إليه طفله جزعاً ، وقال بصوته الصغير الحنون :

— يا أبت . . ألا تعرفني ؟ .

فلم يبد حراكاً . . وصاحت أسرته وذووه من حوله محاولين إيقاظه . ولكن الناسك هز رأسه قانطا وقال لهم :

— لا جدوى ! . . كيف يسمع كلام الآدميين من كان

فى قلبه مقدار نصف ذرة من محبة الله ! . والله لو قطعتموه بالمنشار لما علم بذلك!

وأخذ الطفل يصيح ويقول :

ـــ الذنب ذنبى .. أنا الذى سألته أن يرى الله ! ..

فالتفت اليه الناسك وقال وكأنه يخاطب نفسه :

ـــ أرأيت ؟. إن نصف ذره من نور الله تكفى لتحطيم تركيبنا الآدمى ، واتلاف جهازنا العقلى ! .

الشهيد !..

دقت أجراس الكنائس ونواقيس الكاتدرائيات احتفالاً بعيد الميلاد وسرى رنينها فى جسد روما كما يسرى الروح العلوى فى أبدان الرهبان ...فى تلك اللحظة هبط المدينة شخص غريب يمشى نحو الفاتيكان ... وهو يرهف السمع الى تراتيل الأناجيل ترتفع فى كل مكان : « ... العذراء تحبل وتلد ابناً ... وتدعو اسمه يسوع لأنه يخلص شعبه من خطاياهم ... » وكانت أصوات الأرغن تحملها الريح الى أذنيه صادحة بألحان « اوراتوريو المسيح » لهاندل و« اوراتوريو الميلاد» لجوهان سباستيان .. آيات من الموسيقى الدينية تشيد كلها بعيسى اذ جاء يحمل الى الانسانية التى نخرت فيها الانانية، ناموس الحب الذى يطهرها من الآثام ...

وبلغت التراتيل هذه الفقرة من الأناجيل : « قال له إبليس ان كنت ابن الله ، فقل لهذا الحجر أن يصير خبزاً . فأجابه

يسوع قائلاً : ان ليس بالخبز وحده يعيش الانسان. بل بكل كلمة تخرج من فم الله . . فاخذه ابليس الى جبل عال وأراه جميع ممالك العالم ومجدها وقال له : اعطيك هذه كلها إن خررت وسجدت لى . . .حينئذ قال له يسوع :اذهب ياشيطان.. إنه مكتوب للرب الهك تسجد ، وإياه وحده تعبد !.. »

هنا انطلقت من الشخص الغريب زفرة ، وصاح فى أعماق نفسه : « ليتنى أطعته فى ذلك الحين !..

وكان قد وصل إلى قصر «البابا» فطلب المثول بين يديه للفور ، ولم يكن من الهين الوقوف فى طريق ذلك الشخص . . . لقد كان فى عينيه شبه قوة لا تصد وأمر لا يرد . . . لم يستطع أحد اعتراض سبيله . . لا القساوسة ولا الكرادلة... فتحت أمامه الأبواب ، فدخل مطرقا خاشعاً إلى مقر رئيس الكنيسه .

وسدد البابا اليه البصر ، ورآه فى صورة رجل ، فقال له بصوت مرتجف :

ـــ أنت !! .

ـــ نعم أنا ...

ـــ وماذا تريد منى ؟ .

ـــ الدخول فى حظيرة الإيمان .

ـــ ماذا تقول أيها اللعين !!.

لفظها البابا هامساً ، وهو كالغارق فى ذهول ... ولكن الزائر الغريب بادر بصوت ممتلىء بالصدق ملتهب بالأخلاص يقول :

ـــ ماعدت استحق هذا الوصف . . . إنى جئت إليك لأتوب ... والويل لى إن كنت تهزأ بى أو تشك فى قولى . . لكل شىء نهاية ... وكان لا بدلى أن أبصر الحق ذات يوم وأن أعود إلى الصواب ... كان من المحتوم أن أحن إلى صدر الله يوماً وأن أزهد فى تلك الحرب الطويلة التى لا نفع فيها ، وأن أهجر الاصرار والعناد ، وأن أعاف مائدة الشر ، وأن أتوق إلى طعم الخير . . نعم . . خذوا منى ما تريدون ، عذبونى أشنع العذاب : أوقعوا بى أفظع العقاب ، ولكن برب السموات لا تحرمونى مذاق الخير لحظة . ما طعم هذا الشىء

لذى تسمونه «الخير» ، وتملكونه أنتم وتحبسونه عنى !؟ . لقد
عشت منذ الأزل ، طالما كابرت ، وطالما تكبرت ، طالما صمدت
وطالما صبرت طالما قلت إن ما فى يدى هو كل شىء ، وإنى أكفى
ذاتى بذاتى ، لا حاجة بى إلى غير ما أملك لنفسى ولمن يتبعنى
فى مملكتى .. وما من أحد لم يتبعنى برهة من الزمن . رعيتى فى
كل مكان .. حتى هنا بين تلك الجدران .. على الرغم من المسوح
والصلبان ولكن ما قيمة ذلك الملك العظيم ما دمت أحس الحرمان .
أنقذونى بربكم . أذيقونى الخير مرة ثم ألقوا بى فى الجحيم ...
لقد ألقيت السلاح . ونبذت الكفاح .. ما أنا إلا مؤمن ..
ذلك كل مطمحى الآن .. أن أصبح واحداً من هؤلاء المؤمنين
الخيرين ، ممن تعج بهم الساعة البيع والكنائس ، ساجدين
للرب مرتلين الأناجيل ، فرحين بعيد السيد المسيح ، مرددين
أقواله مشيدين بأفعاله .. أيها البابا يا وكيل المسيح . جئت
أركع عند قدميك ، لتعمدنى بيديك ، وتدخلنى فى الدين ،
وسترانى من خيرة أبناء الكنيسة الأبرار المخلصين .
اهتز البابا فى عرشه لهذه النبرات الحارة الصادقة .. ولكنه

لم يكف عن الهمس والدهش .
ــ أنت ؟ . أنت إبليس .. تدخل الآن فى الدين ؟! ..
ــ ولم لا ؟ .. ألم يجىء فى كلام المسيح . «أقول إنه هكذا
يكون فرح فى السماء بخاطىء واحد يتوب ، أكثر من تسعة
وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة» هل فرق المسيح بين
شخص وشخص ؟ . أليس الجميع أمام المغفرة سواء ؟ . لم تغلقون
فى وجهى سبل التوبة ؟ . إنى أتوب .. أدخلونى فى الدين
استمعوا إلى ما انبثق فى قلبى من ايمان ! .
وقع البابا فى حيرة .. واضطرب وارتعد للفكرة ..
وصاح كالمخاطب نفسه : «لا .. لا .. لا أستطيع هذا ...»
وكان الأرغن يعزف انغام ذلك «الميس» للبابا مارسيلوس
من وضع الموسيقى القديم «بالسترينا» فرفعت فوق اجنحتها
مخيلة البابا إلى آفاق من الأفكار : إذا آمن إبليس ففيم إذن
بعد اليوم مجد الكنيسة ؟ وما مصير الفاتيكان ومتاحفه وتحفه
ومخلفاته الدينية الكبرى . كل شىء يفقد معناه وتذهب روعته
وتولى مقاصده . كنيسة «سكستين» التى تزينها تصاوير ميكايل

انجلو عن « غواية حواء » ، « الأنبياء » ، « الطوفان » ، « يوم
الحساب الأخير » ، ولوحات القاعات والمقاصير من ريشة
رفائيل عن « خلق الله النور » ، « والخروج من الفردوس »
و « تعميد المسيح » . . . إن إبليس هو محور الكتاب المقدس
بعهديه القديم والجديد . . كيف يمحى من الوجود دون أن
تمحى كل تلك الصور والأساطير والمعانى والمغازى التى
تعمر قلوب المؤمنين وتفجر خيالهم ؟ . . مامعنى « يوم
الحساب » إذا محى الشر من الأرض ؟ : وهل يحاسب اتباع
الشيطان الذين تبعوه قبل إيمانه ، أم تمحى سيئاتهم . . مادامت
توبة إبليس قد قبلت ؟ . ثم ما مصير العالم وقد خلا من
الشر ؟ . هذه الحروب التى جعلت من أوروبا المسيحية سيدة
البشر ؟ . وهذه المنافسات الروحية والمنازعات الذهنية
والمادية التى أوقد احتكاكها شرارة الفكر وضوء العلوم ؟!
لا . . إن الأمر خطير . . وليس من حق البابا ان يفصل
فيه . إن تحطيم الشر وفصله من الدنيا ، سيحدثان انفجاراً
لن يدرك الذهن له مدى . .

رفع البابا رأسه ، والتفت إلى ابليس بحرج وضيق :

— ولماذا جئتنى انا دون غيرى؟ . لماذا اخترت المسيحية
دون بقية الأديان ؟ .

— هذا الاحتفال بعيد السيد المسيح ذكرنى وألهمنى . .

— اصغ الى يا . . لست ادرى بماذا اناديك؟ أرأيت؟ حتى
اسمك بعد توبتك سيثير اشكالا ! . كلا ! . . ان الكنيسة ترفض
طلبك . . اذهب اذا شئت الى دين آخر . .

وولاه ظهره . . .

* * *

خرج الشيطان من الفاتيكان خائباً ذليلا . ولكنه لم
يفقد الأمل . . . ان أبواب الله كثيرة، فليلجأ الى باب آخر . .
ويمم شطر حاخام اليهود . . .

استقبله الرئيس الاسرائيلى كما استقبله الرئيس المسيحى
واستمع طويلا الى امنيته . . . ثم التفت اليه وقال :

— تريد ان تكون يهودياً ؟ .

— أريد ان اصل الى الله .

فتأمل الحاخام قوله ملياً . . . اذا عفا الله عن ابليس
ومحى الشر من الأرض . . ففيم اذن التمييز بين شعب وشعب؟
بنو اسرائيل شعب الله المختار . . . لن يكون بعد اليوم مبرر
لاختيارهم دون بقية الشعوب ولامتيازهم على بقية
الاجناس . . حتى السيطرة المالية التى صارت اليهم منذ أجيال
ستذهب عنهم ، . بذهاب الشر عن النفوس . وزوال الجشع
وموت الطمع وفناء الأثرة والحرص والأنانية . . ايمان ابليس
سيدك صرح التفوق اليهودى . . وتهدم مجد بنى اسرائيل . . .

ورفع الحاخام رأسه ، وقال بنبرة استهزاء :

ـــ ليس من عادتنا التبشير ، والا الاهتمام بان يدخل فى
ديننا الغير . . . حتى ولو كان ابليس !! اذهب عنا الى دين آخر . . .

* * *

فخرج ابليس من عنده مخفقاً مرذولاً . . . ولكنه لم
يقنط ، لم يزل امامه باب : هو دين الاسلام . . .

واتجه لوقته الى شيخ الأزهر . .

واستقبله شيخ الأزهر . . واصغى الى قوله ومايسمى

اليه . . ثم التفت إليه وقال له :

ـــ ايمان الشيطان ؟! . عمل طيب ولكن . . .

ـــ ماذا ؟ . أليس من حق الناس أن يدخلوا فى دين الله
افواجاً ؟ . اليس من آيات الله فى كتابه الكريم : « فسبح بحمد
ربك واستغفره إنه كان تواباً » ؟ ها انذا أسبح بحمده واستغفره ،
وأريد أن ادخل فى دينه خالصاً مخلصاً ، وان أسلم ويحسن
اسلامى وأكون نعم القدوة للمهتدين !

وتأمل شيخ الأزهر العواقب ، لو اسلم الشيطان ، فكيف
يتلى القرآن ؟ هل يمضى الناس فى قولهم « اعوذ بالله من
الشيطان الرجيم » ؟ ! لو تقرر الغاء ذلك لاستتبع الأمر الغاء
اكثر آيات القرآن . . . فان لعن الشيطان والتحذير من عمله
ورجسه ووسوسته لمما يشغل من كتاب الله قدراً عظيماً . . .
كيف يستطيع شيخ الأزهر أن يقبل اسلام الشيطان دون
ان يمس بذلك كيان الاسلام كله ؟! . .

رفع شيخ الأزهر رأسه ونظر الى ابليس قائلاً :

ـــ انك جئتنى فى أمر لا قبل لى به . . هذا شىء فوق سلطتى ،

واعلى من قدرتى . . . ليس فى يدى ماتطلب . . .ولست الجهة
التى تتجه اليها فى هذا الشأن .

ـــ الى من أتجه اذن ؟ الستم رؤساء الدين ؟. كيف اصل
الى الله إذن ؟ . . أليس يفعل ذلك كل من أراد الدنو من الله ؟!.

ـــ نعم . . ولكنك لست مثل الآخرين .

ـــ لماذا ؟ . انى لم أرد أن أميز نفسى عن الآخرين . . لم أرد
الارتفاع مباشرة الى السموات العلى . . احادث الملائكة
وأقابل الأنبياء . . . كان ذلك فى مقدورى ، ولكنى أبيت
الاعتصام بقدرتى والاعتزاز بشخصيتى . . لم أشأ طرق باب
السماء بصولجان كما يطرقها ملك . وإن كان ملك الشر . . لم أشأ
جلجلة السماء بضجيجى ولازلزلة الاعالى بصياحى ، وأنا أضع
سيفى وأسلم سلاحى . . واخضع كما يخضع تاج لتاج . . .
ولكنى أردت أن أدخل باب الدين كمسكين . . وأن أزحف
على ركبتى معفراً رأسى الملكى بتراب الذل ، ملتمساً الهداية
والمغفرة من البيع والكنائس والمساجد كما يلتمسها أحقر
البشر وأضعف الآدميين . . .

أطرق شيخ الأزهر لحظة . . . وهرش لحيته ثم قال :

ـــ نية طيبة ولا ريب ! . . لكن . . . على الرغم من
ذلك أصارحك أن اختصاصى هو إعلاء كلمة الإسلام ،
والمحافظة على مجد الأزهر ، وأنه ليس من اختصاصى أن
أضع يدى فى يدك .

ـــ لك الشكر . . .

***

قالها إبليس بذلة ومسكنة . . . وخرج واليأس ملء
نفسه . . . ومشى فى طرقات الأرض على غير هدى ، ينظر
إلى براءة الأطفال فيذوب قلبه حناناً إلى كل شىء طاهر برىء . . .
ويرى الخير فى أعمال الطيبين من الناس فيتحرق شوقاً إلى
كل خير . . ويطالع ثمار الصلاح والتقوى والإيمان معروضة
فى قلوب الأخيار المؤمنين . كأنها فى واجهات الحوانيت . . يمد
إليها يداً قاصرة عاجزة ، ويشيعها بنظرة ملتاعة والهة . .
الحرمان من الخير . . . تلك هى النقمة الكبرى التى صبت على
الشيطان !

وصاح صيحة ألم بددت السحب ، ونفذت إلى السماء . .

ولم يطق صبراً . . فانتفض انتفاضة من كادت روحه تزهق .

وتجرأ وصعد إلى الأعالى . .

دق بيديه أبواب السماء دقاً . . وطرق بروحها طرقاً . .

وقد طار صوابه ، كأنه شحاذ صائم يقرع باباً من أجل لقمة عند الغروب . .

فظهر له الملاك جبريل :

— ماذا تريد ؟ .

— التوبة . .

— الآن ؟ ! .

— هل جئت متأخراً ؟ .

— بل جئت قبل الأوان . ليس لك الساعة أن تغير النظام الموضوع . . ولا أن تقلب ما استقر من أوضاع . .

عد من حيث أتيت ، وعش فى الأرض كما عشت . .

— أنت أيضاً ؟ . . آه . . ماعدت استطيع . . أذيقونى الخير ! . .

— الخير محظور عليك ، إياك أن تمد اليه يداً . .

— شجرة محرمة ؟ .

— عليك . . نعم . . ولن تجد مايعينك على عصيان هذا الأمر . كما عاونتك حواء من قبل . . يوم أذاقت آدم من شجرة الشر !

— أليست هناك رحمة ومغفرة ؟ !

— ليس للرحمة ولا المغفرة أن تمسا نظام الخليقة .

— ما أنا إلا حقير فى المخلوقات

— نعم . . ولكن زوالك من الأرض يزيل الاركان ويزلزل الجدران ، ويضيع الملامح . ويخلط القسمات ، ويمحو الألوان ، ويهدم السمات . . فلا معنى للفضيلة بغير وجود الرذيلة . . ولا للحق بغير الباطل . . ولا للطيب بغير الخبيث، ولا للأبيض بغير الأسود . . ولا للنور بغير الظلام . . بل ولا للخير بغير الشر . . بل ان الناس لايرون نور الله الا من خلال ظلامك . . وجودك ضرورى فى الأرض مابقيت الأرض مهبطاً لتلك الصفات العليا التى أسبغها الله على بنى

الانسان !.

— وجودى ضرورى لوجود الخير ذاته ؟!. نفسى المعتمة يجب أن تظل هكذا لتعكس نور الله !. سأرضى بنصيبي الممقوت من أجل بقاء الخير ومن أجل صفاء الله .. ولكن .. هل تظل النقمة لاحقة بي واللعنة لاصقة باسمى، على الرغم مما يسكن قلبي من حسن النية ونبيل الطويه ؟!...

— نعم يجب أن تظل ملعوناً إلى آخر الزمان .. إذا زالت اللعنة عنك زال كل شىء...

— عفوك ياربى !. لماذا أحمل هذا الوقر العنيف لماذا كتب على هذا القدر المخيف ؟ لماذا لاتجعل منى الآن ملاكاً بسيطاً من ملائكتك، يباح له حبك وحب نورك، ويثاب على هذا الحب بالعطف منك والحمد من الناس؟ هاأنذا أحبك حباً لامثيل له ولاشبيه .. حبا يستوجب منى هذه التضحية التى لم تدركها الملائكة ولم يعرفها البشر .. حباً يقتضينى الرضا بارتداء ثوب العصيان لك، والظهور فى لبوس المتمرد عليك، حبا يستلزم منى احتمال لعنتك على ولعنة الناس . حبالاتسمح

لى حتى بشرف ادعائه . ولابفرح الانتساب إليه .. حباً اذا كتمه النساك ملأ صدورهم نوراً .. وأنا أكتمه، ولكن نوره يأبى من صدرى اقتراباً ..

وبكى ابليس ..

وإذا دموعه تتساقط على الأرض . لاقطرات من ماء السحب .. بل قطعاً من النيازك المعتمة وأحجار الشهب !.

فبادر جبريل مرتاعاً يسكته :

— حسبك !. حسبك !. انها تتساقط على غير هدى فوق رؤوس العباد !.

فكف ابليس فى الحال عن البكاء وقال بمرارة أليمه وكأنه يخاطب نفسه :

— نعم .. حتى عبراتى كوارث !.

وكفكف من دمعه متجلداً .. ولطف جبريل من لهجته قائلا :

— تحمل مصيرك .. وقم بواجبك، وامض فى مهمتك، لاتتململ ولاتتوجع ولاتئن ..

— أثور ؟ . لو انى أردت الثورة حقاً لثرت ، وعصيت ، وخرجت على النظام ، وشققت عصا الطاعة بمجرد صمتى لحظة ، ووقوفى عن اداء مهمتى برهة .. وامتناعى عن ايحاء الشر دقيقة ولكانت الأرض الآن ياجبريل كما وصفت :

مهدمة الأركان .. مزلزلة الجدران .. ولكنى احب ولست اثور .. وحبى لله هو وحده سر هذا التماسك فى بناء أرضه ! وسر هذا التناسق فى قوانينه ونظمه ! ..

— إسمع نصحى .. عد إلى عملك ! .

— سأعود متدثراً بعباءة لعنتى .. دون أن أدرى متى أخلعها ؟ .

ان الممثلين على الأرض يرتدون أحياناً ، أدوار الخيانة والغدر .. وهم يعلمون أن لخلعها ساعة موقوته .. يعودون بعدها شرفاء أطهاراً .. وقد رد إليهم الاعتبار .. أما أنا ..

— اهبط الأرض وتحمل ... من يحب فليتحمل ! .

— إنى أفعل أكثر من الاحتمال .. ان من يمت فى معركة من أجل الله يكتب عنده فى الشهداء .. وأنا اتحمل فى سبيله

أكثر من الموت ... ليتها كانت معركة . ليته كان الموت .. ليتنى كنت من جنوده

يجب أن أعيش لا أخالف من أحب ! .. إنى أمقت نفسى وألعنها فى كل لحظة مرات .. لا أستطيع أن أموت .. حتى أقتل نفسى أو أدفع بها الى القتل فى سبيل الله ! ولكنى أنزل بها من صنوف الكره وضروب البغض ماهو أبشع من القتل .. وليس لى مع ذلك أن أتطلع إلى رحمة ، ولا أن أطمح إلى مغفرة ، ولا أن أطمع فى أن أسلك فى عداد المجاهدين ...

ولمح جبريل فى عينيه تلك القطرات تترقرق .. فعاجله قائلاً :

— لاتبك .. لاتبك ! .. لاتنس أن عبراتك كوارث . وضحكاتك كوارث .. لاتكثر من الانفعال رحمة بالناس .. اذهب ، واصبر والزم الاعتدال .

أطرق ابليس ملياً .. وفكر طويلاً ثم تحرك أخيراً وهو يقول فى شبه همس :

— صدقت ! . . .

* * *

وترك السماء مذعنا . . وهبط الأرض مستسلماً . . ولكن زفرة مكنومة انطلقت من صدره وهو يخترق الفضاء . . رددت صداها النجوم والأجرام ، فى عين الوقت كأنها اجتمعت كلها معه لتلفظ تلك الصرخة الدامية :

— إنى شهيد ! . . إنى شهيد ! . .

موزع البريد !..

عرفته على شاطىء البحر . . . ذلك الشخص الغريب الذى يحمل محفظة كمحافظ موزعى مصلحة البريد . . كل شىء فيه ينم عن الكسل والاسترخاء والغباء . . . حتى نظرته إلى الفضاء ، كانت نظرة المخبول الشائعة الحائرة . . . وجلسته كانت جلسة المتعب المرهق الضجر من نفسه ومن الدنيا . . . لقد خيل إلىّ أن قاموس هذا الشخص لايحوى غير كلمة واحدة « أف » ! .

دنوت منه وقلت له برفق :

— إذا لم يخب ظنى فأنت موزع بريد فى الإجازة . . .

— إجازة ! .

لفظها الرجل دون أن يلتفت إلىّ ، وفى شبه ضحكة غيظ مكتوم ، فقلت له :

— ولم لا ؟ أليس من حقك أن تنال إجازتك الأسبوعية

— إنى لم أنل إجازة يوماً واحداً طول حياتى .

— يالظلم مصلحة البريد ! . . . أو ليس فيها نظام للإجازات ؟ !

— مصلحة بريدى لا تعرف الإجازات ياسيدى !

— ماذا تقول ؟ ! .

— تصور ياسيدى الفاضل أنى أقوم فى كل يوم مع الفجر والطير فآخذ محفظتى مملوءة منتفخة برسائل عدد هذا الرمل، كل من على الأرض له فيها رسالة . . . وعلىّ أنا أن أطوف بكل مخلوق أسلمه واحدة . . بالعدل والقسطاس . . . إلى أن ينتهى اليوم . . وبانتهائه يجب أن تفرغ المحفظة . . . لتملأ فى اليوم التالى من جديد برسائل جديدة . . . توزع على الناس واحدة واحدة . . . بالعدل والقسطاس، وهكذا دواليك . . . لا الأيام تنتهى ولا الناس تفنى ولا المحفظة تفرغ . . . لاشىء يفرغ غير صبرى . . . ولكن ماحيلتى ؟ . . لابد لى من العمل . . . وإلا تراكمت علىّ رسائل يومين . . . فأقع فى حيص بيص . . .

— ياللعجب ! . أولا يوجد فى المصلحة موزعون غيرك ؟!

— لا يوجد غيرى . . . أنا كل المصلحة .

— أهو إهمال أو سوء إدارة ؟ !

— لست أدرى . لطالما تظلمت من كثرة العمل . . . فذهبت صيحاتى فى الهواء . . . وانتهى بى الأمر إلى ماترى من التواكل وقلة الاكتراث .

— وهل تتمكن من توزيع هذه الرسائل فى يومك ؟ !

— إنى أوزعها حيثما اتفق ولا يطالب إنسان بأكثر مما يستطيع . . . ولم أر أحداً حاسبنى على خطأ ارتكبته . . . ولا بد أنى ارتكبت بالضرورة كثيراً من الأخطاء . . . المهم هو أنى لا أرجع آخر الأمر برسالة واحدة فى محفظتى .

* * *

قالها وهو يفتح محفظته . . . كأنما تذكر وجودها . . . فأبصرت فيها حقاً عدد الرمل من الرسائل . . . فقلت له مرتاعاً :

— متى توزع كل هذا ونحن الآن فى الضحى ! ؟ .

— لا تخش علىّ . . . سأفعل ما أفعله كل يوم . . .

ومد يده إلى صياد بقربنا ظل من مطلع الصبح لا يصطاد شيئاً . . . فدس فى جيبه عشرات من الرسائل . . . فإذا شبكته

تخرج برزق من السمك أذهله من العجب ، وأرقصه من الفرح . . وكان على بعد منا جماعة من الصيادين يحاولون عبثاً أن يخرجوا من البحر سمكة .

فقلت لصاحبي الموزع مشيراً اليهم :

ـــ وهؤلاء ؟

فنظر إلى ناحيتهم وقال متبرما :

ـــ هؤلاء يبعدون عنى . . إنى كما قلت لك رجل متعب . . . وما من شيء يضطرنى إلى أن أقصد كل واحد منهم لأعطيه رسالة . . . لقد أعطيت رسائلهم الى هذا الصياد القريب .

ـــ أو تفعل هكذا برسائل الناس دائماً ! ؟ . . .

ـــ طبعاً . . . وهل أنا من الجنون بحيث أوجع مفاصلى وأقطع أنفاسى جرياً وراء كل حى من عباد الله ؟ ! . إنى أعطى من صادفنى رسائل من لا يصادفنى . . . وأنا مستريح فى أمان الله ! .

***

ومرت بقربه عندئذ عجوز حيزبون ، كريهة الصوت ،

سيئة الخلق ، تخرج من ثوبها ورقة «يانصيب» وتنادى بائع صحف لتكشف عن رقمها فى الجريدة وهى تأمره وتنهاه بلهجة دونها السباب وقاحة . . . وخلفها غيد كالغزلان فى أثواب «البلاج» يركضن على الرمال . . ويلوحن بأذرعهن الفضية ، ويحملن فى أيديهن البضة أوراقاً من هذا اليانصيب ، يردن كذلك الكشف عنها . . فاقتربت العجوز من الموزع العجيب فأخرج من محفظته ألف رسالة دسها فى جيبها . فما كادت تكشف عن ورقتها حتى وجدت رقمها هو الرابح للجائزة الكبرى البالغة من الجنيهات ألوفاً . . فصاحت بصوتها القبيح صياح الظفر والفرح والانتصار ! .

هنا طار صوابى وصحت فيه :

ـــ اتق الله ياشيخ ! . وكن صاحب نظر ، إن لم تكن صاحب عدل . . هذه الشمطاء الشوهاء التى يكره أن يضحك لها قبر ، تقبل عليها أنت وتمنحها هـــذه النعمة . . وعلى خطوات منها هؤلاء المليحات ينضح منهن الصبا . فرحات بالحياة ، والحياة بهن فرحة . . لا تبصرهن عينك ولا يضحك لهن وجهك ! .

فدفعني عنه بيده وقال :

— اسكت من فضلك اسكت . لو كان عليّ أن أميز بين الربيع والخريف ، والقبيح والمليح . . . وأن أفرز الذى يستحق ممن لا يستحق ، لما كنت أنهى شغلا فى يومى ! . . .

— أليس لكل إنسان عندك رسالة بنصيبه المماثل لنصيب أخيه ؟ .

فصرخ فى وجهى :

— قلت لكم لا أستطيع أن أفعل المستحيل ! . . . ارحمونى ! . . . أما من أحد يرحمنى أو يعذرنى فى الأرض أو فى السماء ! . . . إنهم فى سماء يقولون لى : « جلبت علينا باهمالك سخط الناس » ! وأنتم فى الأرض تصيحون بى : « هذا أخذ وذلك لم يأخذ » ! . . . وأنا وحدى المظلوم . بصرى كل ، وعقلى اختل ، من إرهاقى بالعمل أجيالا بعد أجيال . . . احمدوا ربكم أيها الناس ، إن عينى تبصر أشباحكم ، وإنى أنثر عليكم كل ما فى محفظتى يوماً بعد يوم . . . ذلك أقصى قدرتى ! . من دنا منى أو دنوت منه ، أخرجت له وأعطيته ما لمس أصابعى ،

ما وقع فى قبضتى . . . ما التقطته من المحفظة أو ما غرفته . . . وفقاً للمصادفات وتبعاً للظروف . . . أما أن أوزع بالعدل والقسطاس على كل إنسان نصيبه المماثل لنصيب أخيه فهذا عمل يحتاج إلى جرى لا تحتمله ساقاى ، وجهد تعجز عنه قواى . اتهمونى بالكسل . . . ما شئتم . . . أو بالظلم أو بالإهمال . . . فلن أصنع أبداً غير ما ترون . . . ومن له شكوى فليعلنها ما شاء ، فإن عدد الشكاوى التى تقدم كل يوم فى حق تبلغ عدد هذا الرمل أيضاً

***

وانصرف عنى وعن الشاطىء ذلك « الموزع العجيب » وتركنى سابحاً فى أفكارى ، غارقاً فى تأملاتى . . . إلى أن نبهتنى صيحات الفرح من الصياد المحظوظ ، وضحكات الغبطة من الرابحة العجوز . . فنهضت أركض خلفه صائحاً كالمجنون :

— أيها الموزع ! . . انتظر ! . نسيت أن أطلب إليك . أعطنى رسائلك . اغرف لى من محفظتك ! .

***

لكنه كان قد اختفى . . . وقعدت أنا على الشاطىء يائساً

لا أجد غير رماله تغرف منها قبضتى ، وغير بنانى أعضه ندماً وأقول :

— لعنة الله علىّ ! . . . كان « الحظ » هاهنا إلى جانبى بمحفظته المملوءة . يعطى منها بغير حساب ! ولكنها الفلسفة . . قاتلها الله . . . شغلتنى عن مصلحتى وشغلته عن إعطائى . . . فضاع الوقت معه فى الكلام . . . ولم أظفر من لقائه بغير كلام ! . . . ولو لم يمتد فكرى إليه لامتدت يده إلىّ ، ولكنت اليوم روتشيلد وروكفلر وقارون ! . . .

أنا الموت ! . .

فى سيدى بشر صخرة يحيط بها زبد البحر وحبب الموج كما تحيط قلادة اللؤلؤ بعنق جنية سمراء . . . فوق قمة تلك الصخرة جلس شاب فى يده كتاب ، لا يطالعه . . ولكنه يطالع الأفق اللانهائى تارة ، وتارة أعماق الماء . . ما من شك فى أنه يصغى إلى همسات تناجيه وتناديه . . أهى خارجة من بين أسطر كتابه ، أم آتية من الشفق البعيد ، أم صاعدة من الغور السحيق ؟ . . إنه يسمعها من هنا ومن هناك . . إن لغتها مفهومة له . . وإن مراميها معلومة لديه . . وجاءت اللحظة الحاسمة ، فنهض قائماً كأن شيئاً يجذبه ، وألقى بنفسه فى الماء . . .

لم يمض قليل حتى شعر السابحون ورواد « البلاج » أن فى البحر غريقاً . . وهاج الشاطىء بمن عليه وماج . . وعلا الصياح وارتفع الضجيج ، بادرت قوارب الإنقاذ . وهرع المجازفون من حذاق السباحة . . وبدا للناس أن تلك التدابير

على غير جدوى، فهم يرون على البعد ذلك الجد التعس
ينتفض ويتخبط فى لحظاته الأخيرة ولم تعد تظهر منه إلا
الأذرع المضطربة مع الأمواج. ولن يصل المنقذون إلا وقد
صار فى القاع.. وجعل الناس يتبعون مصير ذلك المجهول
بقلوب واجفة.. وكثر البكاء عليه من كل رقيقة أو متظاهرة
بالرقة.. وتمتمت الأفواه بالترحم عليه.. وقد أيقن الجميع
بهلاكه، ولم يبق عند أحد شك فى تلفه...

ولكن صيحة فرح لم تلبث أن دوت فى ذلك الجو
العابس.. فالتفت الناس.. فإذا فتاة فى «مايوه» تركب
قاربا صغيراً من المطاط زاهى اللون قد ظهرت من خلف الصخرة
تحمل أمامها فوق مطيتها جسم ذلك الشاب، كأنها تحمل مقطف
مشترياتها من السوق، وهى تهلل مرحة فى قلب البحر:

«هو.. هو.. هالو.. هالو..!»

فأدرك الناس أن ذلك الجسم المحمول بين يديها لم يزل
ينبض بالحياة..

وهتفت الجماهير على الشاطىء للفتاة، واتجهت إليها

جماعة السباحين والمنقذين، يأخذون منها الغريق، ويسلمونه
لرجال الإسعاف، ومشت الفتاة مختالة بين الحشد المحيط بها
المتسائل عن حقيقة الحادث.. وهى تجيب قائلة إنها
شاهدت كل شىء من البداية حتى النهاية. فقد كانت تجدف
فوق قاربها المطاط قرب الصخرة. وأبصرت الشاب وهو
يهب مستوياً على قدميه فوق القمة، ويطرح من يده الكتاب
ثم يلقى بنفسه فى الماء. فأسرعت اليه مجدفة بكل قوتها حتى
بلغته وقد كادت تطويه الأمواج. فقبضت على ذراعه وجذبته
إلى مطيتها الخشبية وهو خائر القوى فاقد الوعى...

— إنه حادث انتحار إذن؟!. لماذا أراد أن ينتحر؟!.

هذا هو السؤال الذى حار على كل الشفاه!..

قد يكشف التحقيق عن السر. فالانتحار من الحوادث
الجنائية التى يجب أن تتولى فيها التحقيق النيابة العمومية...

ولم تكن حالة المصاب الصحية على شىء من الخطر
فلم يكد يسعف بالعلاج حتى أفاق.. وعاد بعد قليل إلى حياته
الطبيعية، ومثل بين يدى وكيل النائب العام، وكان فى قاعة

التحقيق تلك الفتاة شاهدة الإثبات تدلى بأقوالها .. فلما فرغت .. التفت المحقق إلى الشاب قائلا :

— ماهو الباعث لك على الانتحار ؟ .

فلم يجب الشاب ولكنه التفت إلى الفتاة يتأملها من رأسها إلى كعب حذائها .. لا تأمل المعجب بحسنها بل ...

وكتم فى صدره نفخة غيظ ثم قال :

وما هو حق هذه الآنسة فى منعى من الانتحار ؟! .

فتردد النائب قليلا ، ثم أراد الكلام .. ولكن الآنسة انطلقت تجيب :

— لو رأيت منديلى يسقط منى فى الطريق أفلا تنحنى وتتناوله وترده إلىّ ؟ .. إذا كان هذا من حقك ، أفلا يحق لى وقد رأيت حياتك تسقط منك فى البحر أن أنحنى وأتناولها وأردها إليك ؟! .

فقال الشاب بقوة :

— لا ياسيدتى ! .. موضوعنا عكس ذلك بالضبط . إن منديلك لم يسقط منك فى الطريق .. بل أنت بيدك وإرادتك

أسقطته عن عمد .. فلو رآك أحد وأنت تلقين به فى الطريق أو فى البحر ثم تطفل وتدخل ليرده إليك فهل تعتبرين هذا من حقه ؟ ..

فقالت الفتاة متحدية :

— ولكن المنديل ...

وهنا تململ وكيل النيابة فصاح :

— دعونا من مسألة المناديل هذه .. هذا كلام لا يدون فى محاضرنا ... نحن أمام جناية شروع فى انتحار ... ولقد وجهت إليك أيها الشاب سؤالاً صريحاً : ما السبب الذى دفعك إلى ذلك ؟ . والمطلوب الإجابة عن هذا السؤال بدقة مع عدم الخروج عن الموضوع ... تفضل ! ...

فقال الشاب :

اكتبوا ذلك السبب التقليدى الذى نطالعه كثيراً فى الصحف : لضيق ذات اليد .

فقال النائب :

أو نسيت أنك قررت فى المحضر عند سؤالك عن صنعتك أنك من ذوى الأملاك وأنك تعيش من ريع عقارات ورثتها عن أبويك .؟!

ـــ إذن قولوا إن السبب هو البله أو الخبل أو الضعف العقلى!.

ـــ أغاب عنك أنك قررت فى المحضر أنك حائز على ماجستير فى الفلسفة من الجامعة!؟.

ـــ قل لى ياحضرة النائب : ماشأنكم إذا كنت أريد أن أحيا أو أريد أن أموت ؟.

ـــ عجباً!.. ألا تعرف أن الانتحار جريمة ؟.

ـــ أعرف أن الانتحار هو الرغبة فى الانتقال من دار إلى دار .. ألا تقرأ فى أعمدة الوفيات بالصحف كل يوم : انتقل فلان من الدنيا إلى الآخرة كما ينتقل المصيّف الى الإسكندرية من القاهرة .. اعتبرونى إذن من المصيفين . زهدت فى مصايف الدنيا كلها .. فخطر لى أن أنتقل من هذا العالم لعالم آخر ..

ـــ هكذا بدون جواز سفر ... أو بدون تذكرة... أو

بدون ترخيص ؟.

ـــ حتى فى هذا أيضاً لابد من هذه الإجراءات ؟.

ـــ طبعاً . وهل تظن الأمر فوضى حتى تنتقل من عالم إلى عالم من تلقاء نفسك خفية على هذا النحو ؟... إن كل مسافر خفية يعتبر مخالفاً، حتى المسافر إلى العالم الآخر!...

ـــ إذن اعتبرنى مخالفاً لأنى سافرت بدون ترخيص أو بدون أمر . ولكن لا حق لك فى أن تسألنى عن سبب السفر!.. فليكن لتغيير الجو أو للتهرب من الدائنين أو لملاقاة عزيز أو للتخلص من ثقيل...

ـــ اسمح لى بأن أذكرك بأن سبب السفر يطلب دائما فى أحوال الانتقال النهائى والإقامة الدائمة بين بلد وبلد .. فمن باب أولى إذا كان الانتقال والإقامة بين دنيا ودنيا ؟!.

ـــ أف!.. يالفضول الناس ، وياللحرية المفقودة على هذه الأرض!...

وأطرق الشاب قليلاً .. وجعل رأسه بين كفيه .. وانتظر وكيل النيابة لحظة رأفة به وإشفاقا من الإثقال عليه...

إلى أن اعتدل الفتى والتفت إلى المحقق بعينين تقولان : أمصر أنت ؟ . فقال النائب :

ـــ نعم لا بد من الإجابة عن سؤالنا . .

فقال الشاب وهو يتهيأ للقيام :

ـــ اكتب إذن أن السبب هو : مرض نفسى . . . وهذا كل ماعندى . . . .

ولم ير المحقق بدأ من الاكتفاء بهذا الجواب . وتمم إجراءاته . . وختم محضره . . وأذن للشاب والحاضرين فى الانصراف . . .

لم يكد الفتى يخرج إلى الطريق حتى كانت الفتاة فى أثره تقول :

ـــ أرجو أن يكون سخطك علىّ قد زال .

فالتفت إليها على الفور قائلا :

ـــ لن يزول مادمت على قيد الحياة .

ـــ إلى هذا الحد ترانى قد أسأت اليك ؟ .

ـــ لولا تدخلك الطائش لكنت الآن فى عالم أرق ! .

ـــ تدخلى الطائش ! ؟ .

ـــ وداعاً ياسيدتى وداعاً ! .

وتركها وقفز من فوق الإفريز ليجتاز الشارع مسرعاً...

وإذا سيارة نقل ضخمة قد داهمته وكادت عجلاتها تسحقه . .

لولا جذبة من يد الفتاة جرته إلى الخلف وأعادته سالماً إلى الإفريز حيث كان . . . فرماها بنظرة نارية ، فهمت معناها، وقالت بصوت يقطر حيرة وأسفاً :

ـــ لاتؤاخذنى . . . هذا غصب عنى . .

فهز رأسه غيظاً وقال كالمخاطب لنفسه :

ـــ لا فائدة . . مادمت أنت موجودة فلن أرى الموت بعينى ! .

فقالت شبه معتذرة :

ـــ وكيف كان ينبغى أن أتصرف ! ؟ .

فانفجر حانقاً ثائراً :

ـــ كفى . . كفى . . مصيبة نزلت على رأسى وانتهى الأمر ! .

من أين طلعت لى أيتها المخلوقة ؟ تفسدين تفكيرى
وتدبيرى ، وتعبثين بخططى وتحولين بينى وبين مصيرى ! ؟ .
أخبرينى كيف أهرب منك . . قولى لى كيف أهرب منك . .
كى ألاقى الموت ؟ ! .

فلم تستطع الفتاة أن تكتم ماخامرها من ضحك . . غير
أنها تماسكت وتصنعت الجد وقالت :

ـــ مصيبة نزلت عليك ! ؟ . ولماذا لاتعتبرنى ملاكك
الحارس ؟

ـــ أنت ؟ . لو كنت ملاكاً حارساً لاستطعت على
الأقل أن أغافلك وأصنع ما أشتهى . . .

ـــ ماذا تشتهى ؟ . أن تموت ؟

ـــ نعم .

فصوبت إليه الفتاة نظرة فاحصة ، ثم قالت :

ما كنت أعرف أن للموت هواة كهواة التنس والبنج
بونج والتجديف ! . . يجب أن أعترف حقاً أنى أخطأت
إذ منعتك من ممارسة هوايتك المفضلة ! . . ولكن

الأمر بسيط . . فى الإمكان إصلاح الخطأ فى الحال . .

ـــ كيف ؟

ـــ ها أنت ذا موجود . . والصخرة لم تزل قائمة ،
والبحر لم ينضب بعد .

ـــ ألقى نفسى فى البحر من جديد ؟ . . .

ـــ وسأجلس أنا على القمة أطالع كتابك . . وأشاهدك
تهوى فى الماء . . فلا أرفع عينى عن الصفحة حتى أتمها على مهل .
وبعد ذلك ألتفت إليك وأترحم عليك . . مبسوط ؟ هيا بنا ! .

ـــ نعم هيا بنا .

قالها بصوت فيه القوة والعزم والتحدى . . ومضى
قاصداً « سيدى بشر » والفتاة إلى جانبه فى مثل عزمه وتحمسه
وفطن اليها فجأة فاستدار قائلا :

ـــ أنا ذاهب الى الموت . وأنت ماشأنك ؟ . .

ـــ أسلمك إليه بيدى كما أنقذتك منه ! . .

ـــ هلمى بنا ! .

وبلغا « بلاج » سيدى بشر . . وأبصرا الصخرة . . .

فقالت الفتاة :

عندى اقتراح . . دعك من حكاية الصخرة . وليلبس كل منا «المايوه» ونسبح فوق «البلسوار» وبعد ذلك . . .

— ولكنى لا أعرف العوم .

— وما الضرر مادمت تريد الغرق ؟! . .

— صدقت . . . وبعد ذلك ماذا ؟ .

— بعد ذلك تتزحلق وأنت من فوق «البلسوار» وتسقط بين الأمواج فى المكان الذى يروق لك . . . إنها موتة «سبور» طريفة ! . مارأيك فيها ؟! .

فهرش رأسه قليلاً وتفكر لحظة ثم قال :

— لا ياسيدتى . . لا تمتهنى جلال الموت . . . أنا الشاب الجاد طول عمرى أختتم حياتى بموت «سبور» بدل أن أختمها بموت وقور ؟! . ياللنساء ؟! . لايضعن إصبعهن فى شىء حتى ينقلب لعباً وعبثاً ولهواً ! . اذهبى عنى أيتها المرأة!..

— لاتغضب ! . . هلم إلى الصخرة ! . .

* * *

لم تمض برهة حتى كان الفتى والفتاة فوق قمة تلك الصخرة المعروفة بـ«سيدى بشر» . كأنهما عاشقان هربا بحبهما من ضجيج المجتمع وصخب الأرض . . وهل يستطيع الناظر إليهما عن بعد أن يتوسم فى أمرهما غير ذلك ، مهما أوتى من فراسة ؟ . . من ذا يشاهد هذين المنفردين الجميلين وهما يتطلعان الى البحر بنظرات حالمة ويخطر فى باله تلك الصلة العجيبة التى تربط أحدهما بالآخر . . أويمر بخلده تلك الفكرة المروعة التى تجول برأس كل منهما الساعة ؟! . .

وطال صمت قطعته الفتاة بقولها :

— من واجبى أن أنصحك أن تتروى .

— لاحاجة بى إلى نصائحك .

— أنت حر .

— هس ! دعينى أسمع تلك الهمسات التى تناجينى وتنادينى ، إنها آتية من الشفق البعيد . . بل هى صاعدة من الغور السحيق ألا تسمعينها ؟ . .

فسددت إليه نظرة أرادت أن تنفذ بها إلى أعماق

نفسه وقالت :

— همسات تناجيك وتناديك؟. اسمع .. أنا لست وكيل نيابة أمامه محضر ... وأنت شخص على أبواب الوفاة. ولن أحول بينك وبين الموت كما اتفقنا ... فهل تسمح وتفضى إلى بسر انتحارك ؟. ثق أنى سأحتفظ به لنفسى .. ولن أبوح به لأحد .. قل ما سبب الانتحار ؟..

فلم يجبها ولم يلتفت إليها ... وظل يحملق فى ماء البحر.. ولبثت هى تنتظر أن تنفرج شفتاه عن كلام .. فلما أعياها سكوته طفقت تقول :

— السبب ظاهر .. طبعاً من أجل امرأة !..

فاتجه إليها بوجهه ورمقها بنظرة سخرية ، ثم عاد إلى ما كان فيه من تأمل الماء دون أن ينبس بحرف ... فأردفت تقول بإصرار :

— لابد أن يكون هذا هو السبب ... من أجل امرأة فى حياتك . أو لعدم وجود امرأة !.

فاستدار يقول لها بهدوء :

— لماذا تجعلين للمرأة هذه الأهمية فى الكون ؟!.

— إذن ما السر ؟.

— يهمك أن تعرفى ..؟.

— جداً .

— اعرفى إذن أنه لا يوجد سر .. كل ما فى الأمر أنى أريد الخروج من الحياة .. أريد أن أخرج منها بكل بساطة .. ماذا فى ذلك ؟

— إنك لم تدخل الحياة بإرادتك حتى تخرج منها بإرادتك

— كدت أخرج منها بإرادتى لولا فضولك وانحشارك فيما لا يعنيك ..

— الحق معك .. هذا درس ينفعنى فى المستقبل.. وإن كنا أحياناً لا نقوى على منع أنفسنا من تنبيه الغافل .. هذه الحياة التى تمقتها .. انظر إليها .. أليست جميلة ؟ أنت لا ترى فى الأفق والبحر غير أذرع للفناء تدعوك وتناديك .. ولكن الناس من حولك يرون بهجة فى كل شىء .. انظر إلى الأطفال والنساء والشيوخ والرجال .. فى الماء وعلى الرمال .. كلهم

مرحون ضاحكون . . لكأنهم يصغون الى همسات أغنيات
تتصاعد من كل شيء لتناديهم وتدعوهم إلى البقاء . . .

فتململ الشاب ونفخ نافد الصبر ضيق الصدر وقال :

— الحياة قبيحة فى نظرى . . أشريكتى أنت فى حدقة
عينى وشبكة بصرى ؟! . رواية فى السينما لم تعجبنى وأردت
الخروج . . هل لمتفرج فى القاعة أن يمسك بيدى ويجلسنى على
الرغم منى . . ويقـــول لى : «الرواية ممتعة ، امكث حتى
النهاية» ! ؟ .

فقالت الفتاة بعنف :

— لا أحد يمسك بيدك . . تفضل . . مت . .

وابتعدت عنه وانتحت ناحية من الصخرة . ولبث هو
لحظة فى مكانه بلا حراك . . ثم تزحزح قليلاً ، واقترب منها
وقال :

— ومن يضمن لى لو ألقيت بنفسى أنك لا تنقذينى ؟! .

فنظرت إليه بعينين واسعتين :

— من يضمن لك ؟ هل يحتاج الأمر أيضاً إلى ضمانات

وتأمينات ؟ اسمح لى . . . هذا كثير . . . قلت لك اطمئن من
جانبى ومت كما تشاء . . . ولكن يظهر أن الشجاعة فارقتك . . .
وأنك تلجأ الآن إلى التعلل والتحجج والتمحك ، فصاح قائلاً :

— أنا ؟! . إنك لا تعرفيننى . . سترين . .

— لقد عرفتك . .

— كم الساعة عندك ؟ . سأموت بعد . .

— وما لزوم الساعة ؟ قفزة وتصير فى الأعماق ! .

— أنا حر فى اختيار الوقت .

— أرجو أن تسرع من فضلك ولا تعطلنى أكثر من
ذلك :

وأخرجت مرآتها الصغيرة وجعلت تسوى شعرها
بتمهل وتأنق وعناية وتنظر إلى انعكاس صورته فى المرآة وهو
واقف كالصنم لا يدرى ما يفعل . . . ثم طفقت تدندن
بأغنية معروفة . فقال لها بنبرة حنق :

— تغنين ؟ .

— وأنا فى انتظارك ! . .

لفظتها بهدوء دون أن تلتفت إليه .. فتركها فى حركة
عنيفة ويمم شطر البحر .. وصاح :

ــ الوداع ! قبل أن ألفظ النفس الأخير . . . أذكرك
بتعهدك : إياك أن تحاولى . . .

فقاطعته قائلة بفتور :

ــ اطمئن ! . .

فاتجه إلى البحر ومد يديه وصاح :

ــ واحد . . اثنين . . ثلا . .

ولم يتم . . فقد انطلقت من فم الفتاة ضحكة عالية . .
فأرخى ذراعيه ، والتفت إليها ساخطاً . . فابتدرته قائلة
ووجهها فى المرآة وإصبعها تمسح شفتيها :

ــ سامحنى . . دهنت فمى بأصبع « الروج » أكثر من
اللازم . . . انظر ! . . .

ــ أهذا سلوك امرأة تشاهد رجلا يحتضر ؟ ! .

ــ أنا متأسفة . لاتغضب ! سأتمم زينتى فيما بعد . .
هلم . امض فيما أنت فيه . أنا الآن تحت تصرفك . . تفضل

وأخفت مرآتها . . واعتدلت فى جلستها . . ولكنه أطرق
إطراق اليائس . . لا من الحياة بل من الموت . . ثم جلس
ووضع رأسه فى كفيه ، وبدا كأنه فريسة لتفكير ممض
وحيرة مضنية . . وأمسى منظره يستدر الإشفاق ويستثير
الرثاء . . فدنت منه الفتاة قائلة برفق :

ــ لاتعذب نفسك . . حاول أن تعيد النظر فى الرواية
أعنى الحياة ، فقد ترى فيها . .

فلم يدعها تكمل عبارتها . . وانتفض قائلاً :

ــ لا . . لن أرى فيها غير سخف وقبح . أنت لا ترين
ما أرى لأنك لاتفكرين برأسك . . وأغلب الناس مثلك . .
أتدرين ما الحياة ؟ . إنها مرآة . . لا كمرآتك تعكس لك وجهاً
جميلا . . ولكنها مرآة من مرايا « اللونابارك » تعكس الحقيقة
طويلة وقصيرة ومنتفخة ونحيلة . . لقد تأملت فوجدت أنه
لا توجد فى الحياة حقيقة ثابتة ، فما نسميه الخير والجمال والعدالة
والحرية الخ . . ليست سوى أشياء لاتحتفظ بصفاتها
طويلا دون أن تتحول إلى جواهر جديدة عكسية

مناقضة .. فالحرية إذا امتدت فى المسافة والبعد صارت
عبودية .. والعدالة تمتد إلى نهايتها فتصبح هى الظلم ..
والجمال فى امتداده ينقلب إلى قبح والخير إلى شر .. حتى
المواقع الجغرافية فى هذه الدنيا ليست ثابتة . فأذا امتد
الشرق إلى نهايته تحول فجأة إلى غرب .. وحسن القمر
أو الكواكب الذى يتغنى به الشعراء ينقلب إلى هول
قبيح إذا تغيرت الأبعاد .. لا توجد فى الحياة حقائق ثابتة .
كل شىء أبعاد ومسافات .. أين الحقيقة فينا فى هذا
«اللونابارك» ... إن مرآته تعكس لنا صوراً تختلف فى
الطول والقصر والبدانة والنحافة والحسن والقبح كلما غيرنا
البعد والمسافة بيننا وبين المرآة .. وكانت الحقيقة خارج
«اللونابارك» .. بعيدة عن تلك المرآة ! .. فهل أنا مخطىء إذا
سعيت إلى الخروج لأبحث عن حقيقة وجودى ؟ ! ما قولك
الآن ... أما زلت مصرة على مخالفتى فى الرأى ؟

فسكتت الفتاة لحظة ... ونظرت إليه تتأمله ملياً ثم قالت:

هل تشكو من إمساك مزمن ؟ .

— نعم ... كيف عرفت ذلك ؟

قالها سريعاً ولكنه لم يلبث أن فطن للمفارقة ... فتجهم
وهم بعتابها وانتهارها ، فليس هذا هو التعليق اللائق بتفكيره
العميق ... ولكنها أسرعت تقول بلطف :

— أتدرى لماذا تفكر فى الانتحار ؟ . هذا طبيعى ...
أنت تصعد فى القمم .. ألا تلاحظ أن أولئك الذين يصعدون
الهرم الأكبر ، يشعرون بدوار ، ويحسون كأن الأرض
تجذبهم وتناديهم .. ولولا أيد تسندهم لسقطوا ، أو ألقوا
بأنفسهم وهم لا يشعرون ؟ .. ولكن من المستحيل على من يمشى
فوق الأرض أن يشعر بدوار المرتفعات الذى يغرى
بالوقوع ! ... عندى لك علاج لدوار المرتفعات .. أتدرى
ما هو ؟ أن تتعاطى بعض التفاهات ! ..

فلم يكد الشاب يسمع منها ذلك حتى ثار :

— التفاهات ؟! . أنا الذى اعتدت التفكير والتأمل
طول العمر ؟!

فقالت هادئة :

— لماذا تجعل للتفكير هذه الأهمية فى الكون ؟ ! .

— ماذا تقولين ؟ .

— اسمع : اذهب وازدرد « كوزين » ذرة مشوية على «الكورنيش». واملأ أمعاءك بنصف أقة خيار أخضر بقشره . . .

— ياحفيظ ! . .

— وتزوج امرأة تناكفها وتناكفك . . وتملأ جزءاً من حياتك بالسخف والقرف والخلف .

— أتزوج ؟ ! . .

— وإذا طلبت منى هذه التضحية لعلاجك . . . فانى أقدم نفسى كأنها دواء من «الأجزاخانة» فى زجاجة عليها ورقة . . .

— حمراء ! . . .

ونهض من فوره مستوياً على قدميه . . . ولم تشعر الفتاة إلا والشاب فى البحر يتخبط بين الأمواج ، وقد ألقى بنفسه بلا تردد قبل أن تفطن اليه . . . فارتبكت هى لحظة لا تدرى ماذا تصنع . . إلى أن دفعتها غريزتها عن غير وعى . . .

فألقت بنفسها خلفه فى الماء وانتشلته وجذبته إلى الصخرة . . وأسعفته . . فثاب إلى رشده وفتح عينيه ووجد نفسه بين ذراعيها . . فقال مرتاعاً :

— أنت ؟ .

— فقالت باسمة :

— ألا تريد أحضان الموت ؟

— نعم .

— أنا الموت ! .

وكانت الدنيا !..

. . . لماذا تمرد إبليس ؟ قصة ذلك معروفة ، جاءت بها الكتب السماوية ولا سبيل إلى الشك فيما روت ، ولكن خيال الروائى يجنح أحياناً إلى اختلاق صور أخرى للحادث الواحد ، ولا بأس من عرض إحدى هذه الصور على سبيل التفكه لا الاعتقاد .

جاء فى تاريخ أبى الفدا أن إبليس قبل أن يرتكب المعصية ويناهض ربه ، كان اسمه «عزازيل» . وكان من أشرف الملائكة من أولى الأجنحة الأربعة . وكان رئيس ملائكة السماء، وكان خازناً على الجنان . وكان له سلطان الأرض ، وكان من أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً، وأن الله لما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش فجعل إبليس على الملائكة ، فوقع فى صدره: إنما أعطانى الله هذه المزية لى على الملائكة .

وتبدأ قصتنا هذه المخترعة، بعد أن تم خلق آدم، خلقه الله

يده . . . إذ لبث جبريل فى الأرض ليأتيه بطين منها يصنع منه آدم . . فلما مد جبريل يده إلى الأرض فزعت وقالت : أعوذ بالله منك أن تنقص منى ، فرجع الملاك ولم يأخذ . فبعث الله ميكائيل فكان حظه مثل حظ جبريل . . فبعث الله فى آخر الأمر ملك الموت . . فما كادت الأرض تقول له : أعوذ بالله منك أن تأخذ منى . حتى قال لها : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمر ربى . ومد يده وقبض من وجه الأرض قبضة . . ولم يأخذ من مكان واحد ، بل أخذ من تربة بيضاء وحمراء وسوداء . . ولذلك خرج بنو آدم مختلفين فى اللون . . وخلق الله من هذا الطين جسد آدم ، فلما مرت به الملائكة فزعوا منه . . حتى إبليس . . كان يمر به فيضربه فيصوت الجسد الأجوف كما يصوت الفخار وتسمع له صلصلة . . ثم نفخ الله فيه بعد ذلك من روحه .. فلما دخلت الروح فى رأسه عطس . . ولما دخلت الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة . . فلما دخلت الروح فى جوفه اشتهى الطعام . وأتم الله خلق آدم .. فجاء خير ما خلق وأعجب ما أبدع ، فأمر الملائكة أن يسجدوا لهذه

الآية الرائعة ، فسجدوا كلهم إلا إبليس . . نظر إلى تلك المعجزة
ملياً ، ثم لوى عنقه ، وهز كتفيه ، ومضى فى الجنة يسير
مستخفاً بما رأى ، مستكبراً أن يقع ساجداً لمخلوق من طين ،
وقابلته الحية الذكية وقد علمت بالخبر ، فاستوقفته صائحة :

— يا عزازيل ! . . . مالك ؟ . لماذا لم تفعل كما فعل
الآخرون ؟ . .

— أنا أسجد لهذا الشيء ؟ ! .

— لا تدع الحسد يأكل قلبك . اعترف أنه عمل عظيم

— ماذا فيه من عظيم ؟ أهو ذلك الطين الذى خلق
منه ؟

— ذلك الطين أفضل على كل حال من النار التى خلقت
منها .

— ماذا تقولين أيتها الحية الخبيثة ؟

— إن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو . . .

— أو لا تعلمين ماذا فى النار ؟

— ماذا فيها غير الطيش والخفة والسرعة والإحراق ؟

— ما أنت إلا النفاق صور وكور ! ألأن الله هو
الذى خلقه ؟

— خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وعلمه أسماء كل شيء . .
وهذا شرف ما بعده شرف . .

— علمه أسماء كل شيء ؟ .

— نعم . . لأنه أعطاه العقل الذى به يعلم ويفهم .
وأعطاه النفس التى بها يعى ويدرك ، وأعطاه القلب الذى به
يشعر ويحب . . إنه ليس على غرار الملائكة ، مخلوقاً يفنى فى
العرش كل الفناء . . إنه متصل منفصل . . إنه مندمج مستقل ،
إنه قدير على أن يفكر بنفسه ، وأن يعيش حياته . . وأن
يقرر فى بعض الأحيان مصيره كأنه مصغر إله . . أو صورة
صغيرة لإله . .

— لقد نفخ فيه من روحه ! . .

— أرأيت ؟ . هو ذاك ياعزازيل . . آن الأوان أن
تفهم ذلك .

— آن الأوان أن أفهم أن فى إمكانى أنا أيضاً أن أصنع

شيئاً : أنفخ فيه من روحى !.

قالها كالخاطب لنفسه ، ومضى سريعاً حتى لا يطرق سمعه صوت ضحكات الحية الساخرة .

انطلق إبليس فى كل مكان يبحث عن الطين ، حتى وجده فتناوله فرحاً وجعل يسوى منه مخلوقا على مثال آدم ، وتمت الصورة ، وانتظر أن تنبض أو تنهض . فلم يجد إلا جماداً لا حراك به . فترك ما صنع وانطلق يائساً ساخطاً، يحمل المرارة والخيبة ، ويريد أن يكتم ما وقع . ولكن الحية الذكية علمت بالأمر فبادرته قائلة :

— فهمت الآن أن الخلق ليس هيناً ! ؟.

— اخرسى !.

— آدم ليس هو الطين . . بل « الحياة » التى أودعت الطين . . ذلك هو « روح » الله . . وهذا هو سره الذى لم يكشفه أحد ، حتى ولا أنت ، الذى زعمت أنك استرقت واجتهدت واطلعت على أكثر علمه .

— سر الحياة !.

— نعم . . . الذى يودعه الطين أو التراب أو النار أو الماء أو أى عنصر من العناصر . . . ذلك هو السر الأعظم ! . . .

— كيف الحصول عليه ؟ .

— هذا ما لا سبيل إليه ، تلك صفة الله التى لا تنفصل عنه ، ولا ينفصل عنها . . . إنها روحه التى لا تعطى ولا تفقد ولا تسلب . . . وهو وحده الذى يستطيع أن ينفخ منها بإرادته فى الكائنات . . .

— لا بد لى مع ذلك من أن أخلق شيئاً . .

— شيئاً حياً ؟ .

— نعم .

— لن تستطيع أن تخلق شيئاً حياً من مادة ميتة . . .

— اخرسى أيتها الثرثارة ! . . .

وتركها وانصرف مطرقاً مفكراً . . . ومشى فى الجنة على غير هدى . . . وإذا المصادفة تقوده الى شجرة وارقة الظلال ، دانية القطوف . . . وإذا هو يبصر تحتها آدم راقداً غارقاً فى نعاسه . . . فوقف على رأسه لحظة يتأمله . . . وخطرت له

فكرة أنعشته بالأمل . . حقاً إنه لن يستطيع أن يصنع مخلوقاً حياًمن مادة ميتة كالطين . . ولكنه قد يستطيع أن يخلق كائناً حياًمن شيء حي . . . فلو استطاع أن يأخذ من جسم آدم الحي قطعة لكان في الإمكان ان يصنع الباقي ، ولكن ماذا يأخذ؟. الأنف ؟ هذا عضو ظاهر ، وإذا استيقظ آدم بغير أنفه ، فلن يكون هو إلا أضحوكة . . . بل الأضحوكة إبليس الذي سيضبط متلبساً بالسرقة ، وسوف تكون قهقهة الحية عندئذ عالية صاخبة . . . كلا . . فليبحث عن عضو غير الأنف . . . ماذا؟ القدم؟ وبماذا يمشي آدم؟ اليد؟ وبماذا يأكل؟ اللسان؟ وبماذا ينطق؟ . كلا . . يجب أن يكون العضو المسروق غير ظاهر وغير نافع . . . وتحسس إبليس برفق جسد آدم ، فوجد الأضلاع . . . إنها ليست ظاهرة ، وهي كثيرة ، لا تظهر فيها السرقة إذا استلب أحدها . . فليأخذ هذا الأقصر الأيسر من بين أضلاعه ففيه تتوافر كل الشروط . . فهو مستتر منزو لا فائدة فيه ، ولن يشعر بفقده حتى ولا آدم نفسه . . .

واستل إبليس الضلع الحي بخفة ومهارة ، وسواه على صورة آدم ، ولكنه تصرف قليلا ، ووضع فيه شيئاً منه . . . وانتصب ذلك المخلوق الجديد يتمطى . . . وعندئذ ارتفع صوت من بين الأشجار يقول :

ــ مرحى ، مرحى ! .

فالتفت إبليس ، فإذا هي الحية واقفة على رأسه ، مطلعة على فعله ، فبادرها بلهجة الظفر :

ــ ما رأيك الآن ؟ .

فقالت في ابتسامة خبث ، وهي تنظر إلى المخلوق الجديد:

ــ بديعة حواء ! . . .

فنظر إبليس إلى الحية مستفهماً مستغرباً :

ــ « حواء » ؟! . لماذا تسمينها هكذا ؟ .

فأجابت الحية بمكر ودهاء :

ــ لأنها صنعت من شيء حي !

ــ أبصرت إذن كل ما حدث ؟ .

ــ وسأكتم سرك . . . لا تخش شيئاً .

— أسائل نفسى دائماً : لماذا لانكون أصدقاء ؟ إنى أحمل لك أيتها الحية كل تقدير ، وأحمل لذكائك كل إعجاب . أتريدين أن أخصك بسر آخر ؟ . . لقد كنت أفكر فيك وأنا أصنع هذا المخلوق الذى سميته « حواء » !

— كما كنت تفكر فى نفسك .

— أحقاً ما تقولين ؟ أترين فى هذا المخلوق شيئاً منى ؟

— بلا شك ، انظر إلى حركاته . . وإلى رشاقته . . بل إلى بريق عينه إن فيه أثراً من الطين ، ولكن فيه أيضاً لفحة من النار . . انظر . . انظر . . فى حواء بعض مافيك : الطيش والخفة والسرعة والإحراق .

وعندئذ دوى فى أرجاء الجنة صوت هائل ارتعدت له فرائص إبليس والحية . فهربا مذعورين جزعين . واستيقظ آدم من سباته ، فألفى حواء بقربه . . فلم يفهم من أمرها شيئاً . . ولبث لحظة يتأملها دهشاً . . إلى أن ألقى فى روعه علم خفى بما ينبغى أن يفعل . فليسكن إلى حواء إذا شاء . . ولكن الحذر كل الحذر أن يقربها . . أو أن يلمس جسدها

جسده .

وعلم إبليس بالأمر ، فأقبل على الحية يسألها :

— لماذا حرم على آدم لمس حواء ؟ .

فأجابته على الفور :

— أو نسيت أن فيها شيئاً من النار ؟ .

ففكر إبليس قليلا ثم قال بارتياب :

لا أظن هذا كل شىء . . إنما المقصود فيما أرى هو أمر أخطر من هذا . . ترى ماذا يحدث لو امتزج هذان المخلوقان ؟ . .

ففكرت الحية لحظة . . ووقع بصرها مصادفة واتفاقاً على عش طائر فى أعلى الشجرة ، فصاحت :

يحدث لهما ما يحدث لهذا الطير . . يتناسلان . .

— يتناسلان ؟ .

— ويخرج منهما مخلوق ثالث .

فصاح إبليس :

— نعم . . هنا المسألة . . وهنا علة الخطر . . ولكن

لماذا لا يراد خروج هذا المخلوق الثالث ؟ .

— لأنه سيكون فيه شيء منك .. هذا مفهوم بالبداهة.. إن آدم ، ذلك العمل العظيم الذى يفخر به الخالق .. تلك الآية التى نفخ فيها من روحه .. يجب أن تبقى هكذا بمفردها صورة خالدة ناطقة بمقدرة المبدع الأعظم وكماله الأبدى الذى لا يشوبه نقص ، ولكنك جئت يا صديقى إبليس تفسد هذه الروعة ، وتريد أن تستخرج من هذه الصورة المفردة نسخاً مشوهة !.

— هذا لم يخطر لى حتى الآن حقاً ! . ولكنه لو حدث لكان بالنسبة إلىّ عملا رائعاً .. وهل هناك حقاً أمهر من أن أملأ الدنيا نسخاً من ذلك العمل العظيم الذى يفخر به الخالق ! ..

— لا تسترسل فى أحلامك وأوهامك . هذا لن يحدث أبداً ..

— لماذا ؟

— لأن لآدم ملكة عجيبة تسمى « العقل » دائمة التيقظ

تمنعه من الزلل والوقوع فى المحظور .

— العقل ؟! . أوما من سبيل أن يدهم النوم هذا العقل لحظة . ؟!

— إذا نام ذلك العقل ، فقد تم لك ما أردت .

— ساعدينى ياصديقتى الحية الذكية !.

— لماذا تريد أن تعرضنى لغضب خالقنا الأزلى ؟! .

— إنه لن يغضب .. لماذا خلق لك الذكاء إذن ؟ . لقد أعطاك الذكاء كى تستعمليه .. هلى ياصديقتى ساعدينى

— قولك مقنع حقاً ، ليس أشق على النفس من أن نعطى شيئاً لا نستعمله . أمعقول أن تكون لى هبة لا فائدة منها

— بل ليست تلك ولا ريب إرادة الخالق الذى أعطاك الذكاء ياصديقتى ، إنه أحكم من أن يعطى شيئاً لغير شىء

— صدقت . اسمع إذن . هنا شجرة فيها فاكهة إذا نضجت واختمر عصيرها أحدث عجباً . فقد رأيت بعض الطير ينقرها فتحدث له أحوال غريبة ، ويقع فى نشوة تفقده اتزانه ...

— دلينى على هذه الشجرة . .

وعند ذاك دوى فى الجنة ذلك الصوت العظيم ، فهرب إبليس والحية مذعورين . . . ووقع آدم وحواء على وجهيهما ساجدين . . ثم ألقى فى روعهما ألا يقربا هذه الشجرة .

ولم يقنط إبليس . . . فقد عاد بعد قليل الى الحية يقول :

— ما العمـــل ؟

— دعنى . . . دعنى . . . لن أشاركك بعد الآن فى مشروعاتك

— وماذا ستصنعين إذن ؟ .

— لا شىء .

— وهل يطيق ذهنك المتقد أن يخمد أو يكسل ؟ .

— إنى أخشى الخطيئة . . .

— الخطيئة لمثلى ومثلك ألا نطيع ملكاتنا ومواهبنا

— لا تقنعنى بهذا الكلام البارع .

— أنت كائن حى ، أليس كذلك ؟ وأنا كائن حى ، هل نشك فى ذلك ؟ الحياة التى فينا هى وحدها التى تسيرنا كما تريد هى ، نحن لانخضع إلا لطبيعة الحياة التى ركبت فينا . . . لم

يوضع فى كياننا « عقل » كما وضع فى آدم . . . ذلك العقل أو العقال والقيد أو الحبال التى تكبل حياته وتحد من نشاطه . . . وتسيره طبقاً الأوامر والنواهى التى تصدر إليه من هنا ومن هناك ! . افعلى ماتمليه عليك طبيعتك ياصديقتى ، فأنت حرة من كل عقل .

— مثلك .

— مثلى .

— لقد حلت معضلتك إذن . . إن فى حواء ولا ريب شيئاً منك . . لن تجد فيها إذن الكثير من ذلك العقل الذى نخشاه .

— يا لذكائك النادر أيتها الحية العزيزة ! . نعم . . نعم . . لاشك أن حواء فيها من روحى . . إنها ستخضع إذن للحياة والطبيعة والغريزة أكثر من خضوعها للعقل . . لقد انتهى الأمر إذن . . إنها ستفهمنى وستصغى إلىّ . . وستأكل من الفاكهة .

— وفيها من قوة إقناعك ، وبراعة إغرائك ، فهى ستظفر بإقناع آدم وإغرائه أن يأكل كما أكلت . . ويصنع كما تريد هى أن يصنع .

فتهلل وجه إبليس فرحاً ، وصفق طرباً ، وجرى من
فوره يبحث عن حواء.

وتم بعد ذلك ما هو معلوم ، فقد ضعف آدم وأطاع
حواء وأكل معها من الشجرة ، وانتشى من عصيرها وثمل ،
وامتزج بحواء وطردا من الجنة إلى الأرض .. وأنبتها الجنين
الأول ! وتكاثرت الذرية وتعددت « النسخ » وجاء قابيل
فقتل هابيل ، وكانت الجريمة الأولى .. وعرف الشر على
الأرض ... واختلطت الصور الجيدة بالرديئة . كما اختلطت
الفضيلة بالرذيلة .. وامتزجت النسخ الأصيلة بالدخيلة ..
ولم يعد فى الإمكان فرز وريث آدم من وريث حواء . ولا
الكمال من النقصان .. ولا النور من النار .. ولا لمعة الحق
من خدعة الشيطان .. امتزجت فى الآدمى الواحد كل عناصر
الخير والشر والحسن والقبح والحقارة والسمو .. والتفاهة
والعظم ، والعدل والظلم .. والعقل والطيش .. والضعف
والبطش .

وكانت الدنيا ... !

دولة العصافير !..

دولة عجيبة .. تبسط أجنحتها الصغيرة على الدنيا .. وتنشر
أفرادها فى كل البقاع ، لاتختفى من أرض ، ولاتخلو منها سماء ..
كلها فى عين الوقت إذا رأت عين الشمس زقزقت ، أو إذا
خرج الصبح من جوف الليل خرجت هى من الأعشاش .
من هو المنادى الخفى الذى يوقظها جميعاً فى لحظة واحدة !
فتهب إلى العمل ، وهى تغنى .. فلا كسلان متخلف ، ولا
متثائب مترف .

قال عصفور صغير لأبيه ذات يوم .

— ألسنا نحن يا أبت خير المخلوقات ؟

فهز العصفور الكبير رأسه وقال :

— هذا شرف لا ينبغى لنا أن ندعيه ، هنالك من يزعم
لنفسه هذا الحق .

— من هو يا أبت ؟ .

— الإنسان

— الإنسان؟ ذلك الذى يرشق أعشاشنا بالحجارة؟ أهو خير منا؟ أهو أسعد منا؟

— ربما كان خيراً منا.. ولكنه ليس أسعد منا.

— لماذا يا أبت؟.

— لأن فى جوفه شوكة تخزه دائماً وتعذبه.

— ياله من مسكين!.. ومن الذى وضع فيه هذه الشوكة؟

— هو نفسه بيده.. هذه الشوكة تسمى الجشع.

-- الجشع؟ ما هو الجشع؟

— هذا شىء لا تعرفه أنت أيها الصغير.. بل قد لا يعرفه أحد فى دولة العصافير.. ولكنى أنا عرفته لطول ملاحظتى للإنسان ولوقوعى فى قبضته أكثر من مرة.. إنه الشىء الذى يجعله لا يشبع ولا يطمئن ولا يرتاح.. نحن نعرف الشبع.. وهو لا يعرف إلا الجوع.. نحن نعمل لنرزق وهو يريد أن يرزق ولا يعمل، نحن لا نعرف استغلال عصفور لعصفور

فعصافير الأرض تخرج كلها للعيش فرحة مغردة متواضعة متآخية.. وهو لا يحلم إلا باستغلال أخيه الإنسان ليعمل بدلا منه منذ الصباح الباكر، ويتمدد هو فى فراشه يتمطى ويتراخى ويتثاءب حتى الضحى.. فلا يرى الشمس الذهبية ولا الفجر الفضى ولا يستنشق الهواء الندى.. إنما شمسه ذهب مرصود فى المصارف، وفجره فضة تزين أدوات حجرته، وهواؤه طمع يملأ صدره.

وسكت العصفور المجرب لحظة، ونظر إلى ابنه الناشىء فوجده يصغى إلى هذا الكلام إصغاءه إلى أسطورة خيالية.. إنه يدرك ولا يصدق، ويعى ولا يعتقد.. تلك أشياء لم يرها بعينه، ولم يصادفها بعد فى حداثته الصغيرة.. ولم يمارسها حتى الآن فى حياته القصيرة.

ورأى أبوه منه ذلك فقال:

— نعم.. لا بد أن تشاهد بعينيك. إذا رأيت يا بنى إنساناً مقبلا فأخبرنى وأنا أريك منه ما يقنعك.

ولم يمض قليل، حتى أقبل رجل، فما كاد العصفور الصغير

يراه حتى صاح بأبيه ينبهه . . فقال الأب لابنه :

ـــ سأوقع نفسى فى يده . وعليك يابنى أن تراقب ما سيحدث .

ـــ تقع فى يده يا أبى ؟ وإذا حدث لك ضرر ؟

ـــ لا تخف . . إنى أعرف طبائع الإنسان ، وأعرف كيف أسخر منه وأفلت من يده .

وغادر العصفور المحنك صغيره ، وهبط من فوره حتى وقع على مقربة من الرجل ، فصاده الرجل فرحاً . . . وضم عليه أصابعه حرصاً منه على الغنيمة . . . فقال له العصفور وهو فى قبضته :

ـــ ماذا تريد أن تصنع بى ؟

فقال الرجل منهوماً :

ـــ أذبحك وآكلك .

فقال العصفور الماكر :

ـــ إنى لا أشبعك من جوع . . ولكننى أستطيع أن أعطيك ما هو أنفع لك من أكلى .

ـــ ماذا تعطينى ؟

ـــ ثلاث حكم ، إذا تعلمتها نلت بها خيراً كثيراً .

ـــ اذكرها لى .

ـــ لى شروط : الحكمة الأولى أعلمك إياها وأنا فى يدك . والحكمة الثانية أعلمك إياها إذا أطلقتنى . والحكمة الثالثة أعلمك إياها إذا صرت على الشجرة .

ـــ قبلت ، هات الأولى . . .

ـــ لا تتحسر على ما فاتك .

ـــ والثانية ؟

ـــ أطلقنى أولا حسب الشرط .

فأطلق الرجل من يده العصفور . ووقف العصفور على ربوة بقربه وقال :

ـــ الحكمة الثانية : لا تصدق ما لا يمكن أن يكون .

ثم طار إلى الشجرة وهو يصيح :

ـــ أيها الإنسان المغفل . . . لو كنت ذبحتنى لأخرجت من حوصلتى درتين زنة كل درة عشرون مثقالاً .

فعض الرجل على شفتيه عضة أدمتها وتحسر حسرة شديدة، ونظر إلى العصفور وقد صار على الشجرة، وتذكر شروطه، فقال له بصوت ينزف منه العذاب والتلهف:

ـــ هات الحكمة الثالثة ...

فقال العصفور باسماً ساخراً:

ـــ أيها الإنسان الطماع! لقد أعماك جشعك فنسيت الاثنين، فكيف أخبرك بالثالثة؟ ألم أقل لك لا تتحسر على مافاتك، ولا تصدق مالا يمكن أن يكون .. إن لحمى وعظمى ودمى وريشى لا يزن عشرين مثقالا. فكيف تكون فى حوصلتى درتان وزن كل واحدة عشرون مثقالا؟!

وكان منظر الرجل مضحكاً .. لقد استطاع عصفور أن يلعب بإنسان ... والتفت الأب الى ابنه العصفور الصغير قائلاً:

ـــ والآن رأيت بعينيك؟!.

فقال الصغير وهو يراقب حركات الرجل ويلاحظ ما به:

ـــ نعم .. لست أدرى هل أضحك منه أو أبكى عليه!.

فى سنة "مليون"

وقعت حوادث هذه القصة فى سنة مليون «ميلادية»! .. فى ذلك العصر صارت الدنيا إلى وضع يتعذر على الخيال تصوره ... فلقد اختفت الحروب، وانقرض المرض، ومحى الموت .. نعم لقد تغلب العلم على الموت منذ مئات الآلاف من السنين ... لم يعد هنالك قوم يموتون ... لم يعد هنالك قوم يولدون أيضا ... فالزواج للنسل انقرض كذلك منذ هذه الأحقاب. فالعلم هو الذى يجهز بكتريا النسل الآدمى فى معامله ... ولقد ظل الأمر يجرى على هذا النهج ألوفاً من الأعوام .. إلى أن كف الناس عن الرغبة فى إنتاج بشر جديد فما من ضرورة تقضى بزيادة الناس ماداموا لا يموتون. لقد أصبح البشر الموجودون شأنهم شأن عناصر الطبيعة الخالدة التى لا تتغير، إنهم باقون دائماً كتلك الشمس الباقية وذلك القمر وذلك البحر وذلك الجبل ... لا شىء يخبو

فيهم أو ينقص منهم . فخلاياهم تتجدد وغددهم لا تعرف البلى .
كلمة الشيخوخة لم يعد لها مدلول فى لغة ذلك العصر . . ولا كلمة
الشباب . . كل مايعرفه أهل ذلك الزمان هو أنهم «موجودون»
وهل يستطيع البحر ، لو كانت له لغة ، أن يتحدث عن الصبا
أو الهرم ؟!

فى صيف ذلك العام المليون — بعد الميلاد — دخل عالم
من علماء طبقات الأرض على عالم من علماء الكيمياء وقال له :

يخيلّ إلى أنى سائر نحو اكتشاف خطير ، سوف يدهش
الناس جميعاً . . . لقد عثرت على عمق بعيد فى جوف الأرض
على هذا الأثر . . انظر . . . وأخرج بحرص وحذر من حقيبته
الصغيرة جمجمة آدمية ! قدمها إلى صديقه الكيميائى . . .
فتناولها وفحصها قائلا :

— ما هذا ؟ هيئة رأس يقرب من رؤوسنا ؟! . . لولا
حجمه الصغير . . ولولا هذا الشىء . . .

وأشار إلى الأسنان والفم . .

فقال العالم الجيولوجى مصادقاً :

— نعم إن تاريخه يرجع إلى ستمائة ألف سنة ! .

— عجباً ! . وكيف تجرد هكذا من لحمه ودمه وشرايينه ؟!

— هنا وجه الغرابة ! . .

— وأين بقية الجسم ؟

— لم أعثر إلا على هذا الجزء .

ووقف الرجلان مشدوهين أمام الجمجمة . . . فهذا شىء
جديد لا يوجد له نظير فى متاحفهم . . . فأن الحروب الذرية
قامت فى الأرض منذ مئات الآلاف من السنين فقوّضت
متاحف العهود القديمة ومكتباتها . . . فلم يصل إلى زمانهم إلا
خلاصة التجارب العلمية التى على أسسها قامت دنياهم الجديدة . . .

وظهرت على وجه العالم الكيميائى عين الحيرة التى ظهرت
على وجه قابيل ، يوم رأى الموت لأول مرة ينخر فى هابيل
المقتول . . .

وهز عالم الجيولوجيا رأسه ولمس الجمجمة بأصبعه وقال :

— لا شك أن هذا إنسان مثلنا . ولكن . . . كيف
وصل إلى هذه الحال . . . هنا السر ؟! .

— نعم . لا بد أن تكون هنالك قوة تستطيع أن تحول الحركة فى الإنسان إلى هذا . . . النوع من الجمود !

قالها العالم الكيميائى وهو يفحص العظام بيده . . .

— الحركة . . . الجمود ؟! . يبدو لى أنه لا بد أن تكون للحركة نهاية ! . .

— كيف ؟ .

— ألم تسائل نفسك مرة : « وأخيراً . . . ماذا بعد ذلك؟»

لقد سألت نفسى عن ذلك يوماً . ربما كان علم طبقات الأرض الذى أمارسه يدفعنى إلى البحث فى الماضى . . . وهذا البحث فى الماضى يحملنى على التنقيب فى المستقبل . . . مامستقبلنا ؟ . . .

— مستقبلنا !! .

— نعم . . . مستقبل جنسنا الإنسانى ؟!

— ماذا فى رأسك ؟ . شىء فى رأسك قد اختل . . .

لفظها عالم الكيمياء وهو يحدق فى زميله مرتاباً . . .

فكلمة « المستقبل » عجيبة الوقع على آذان القوم فى ذلك العصر . . . ليس هنالك غد بالنسبة إليهم . . . وليس هنالك

ليل ولا نهار ولا نوم . . . فالضوء الصناعى أغناهم عن الشمس ، والأغذية الكيميائية أغنتهم عن النوم . . . إنهم حركة دائمة . . . كحركة القلب لا تعرف الهمود ولا الجمود . . . لا وعى لهم لما يسمى « الغد » . . . أما وعيهم للأمس فلا يتجاوز عشرات الألوف من الأعوام . لم يتغير خلالها الوضع عما هم عليه كثيراً . . . فهم إذن لا يعرفون ولا تستطيع مداركهم أن تعى غير زمن واحد ، هو « الحاضر » الذى يبسط جناحيه الهائلين على أحقاب تبدو كلها لكيانهم الخالد كأنها يوم واحد

وشخص عالم طبقات الأرض ببصره إلى الفضاء . وكأنه يحاول أن يرى فى الضباب . . . وهمس كالمخاطب نفسه :

— ما دام هناك وجود ، فلا بد أن يكون هناك عدم وجود . . .

— عدم ؟! .

— نعم . . . العدم . . .

فانتصب عالم الكيمياء واقفاً وقال :

— العدم ؟ . ما هو العدم ؟ . لأول مرة أسمع هذه

السكلمات العجيبة . ما ذا جرى لك أيها الزميل ؟ !

— ألا ينتابك أحياناً هذا الشعور ؟ .

— أى شعور ؟ .

— الرغبة فى أن « لا توجد » .

— من العسير على ذهنى فهم ماتعنى . . أو فهم ما بك . . . شىء فيك قد اختل . . شىء فيك قد اختل !

وأسرع العالم السكيميائى يترك المكان كالهارب ، وذهب من فوره إلى دار هيئة العلماء ، فعرض عليهم أمر عالم الآثار . . وما نطق به من ألفاظ غريبة المعنى مبهمة المرمى . . فتلقوا الخبر بدهشة ، وطلبوا حضوره . فلما مثل بينهم ، سألوه بياناً عن تصريحاته ، فقال :

— نعم . . إن وجودنا الدائم هذا لا بد أن يكون بعده شىء !

— أى شىء تقصد ؟! .

— الموت .

— الموت ؟! . ما هذه السكلمة ؟ .

— لست أدرى . . لقد تعبت من نفسى الآن . . إنه إلهام . . إنى مؤمن أنه يوجد شىء ، فلنسمه : « الموت » . . لا بد أن نصل إليه يوماً . . اصدقونى القول أيها العلماء . . ألم يشعر أحدكم مرة بأغفاءة طارئة عابرة كخفقة الجفن ، أحس خلالها لذة وراحة من نوع غريب ؟! هذه اللمحة يمكن أن تطول ، ويمكن أن تمتد فى الزمن حتى تصبح « عدم وجود » . . وتنقلب إلى ذلك الشىء الذى أسميه : « الموت » . .

فهز العلماء رؤوسهم أسفاً ، وأطرقوا خجلا . . وقد أدركوا أن زميلهم قد شط به الخيال . . ورأى أحدهم أن يطالبه بالدليل فقال :

— لا تنس أنك عالم لا يجوز له أن يجرى وراء وهم ، أو يستجيب إلى مجرد شعور ، قدم لنا برهاناً علمياً على أن هذا الذى تسميه : «الموت» يمكن أن يوجد ؟! .

فأخرج عالم طبقات الأرض « الجمجمة » من حقيبته ، وعرضها على العلماء صائحاً :

— أيها الزملاء الأجلاء . . إن « الموت » قد وجد يوماً

على هذه الأرض . . وهاكم الدليل !

فتجمع العلماء على الجمجمة يفحصونها دهشين أول الأمر ثم لم يلبثوا أن تبادلوا نظرات السخرية والشك والارتياب . . ونبذها واحد منهم وهو يقول :

ـــ هذا ليس دليلاً على ما تزعم ، ولكنه دليل على أنه قد وجد على هذه الأرض من قديم ، قوم وصلوا فى العلم إلى مالم نصل إليه اليوم . فنحن ، يوم كنا نصنع بشراً فى المعامل منذ مئات القرون ، كنا نربى « النطفة » كما نربى البكتريا . . . ولكن أقوام ماقبل التاريخ هؤلاء ، كانوا ، فيما يظهر ، يصنعون الهيكل الآدمى صنعاً . ثم ينفخون فيه الحياة بعد ذلك . . هذه العظام التى تعرضها علينا كانت « مشروع » خلق آدمى لم يتم صنعه لسبب من الأسباب ! .

ووافقت هيئة العلماء على هـــذه النظرية بالإجماع ، وحذروا عالم الجيولوجيا من الاسترسال فى أمثال هـــذه الترهات خوفاً على بسطاء العقول فى المجتمع ممن يستهويهم جو الخرافات . . . وانصرف العلماء عن زميلهم الجيولوجى ،

وتركوه غارقاً فى خزيه وخيبته . . .

ولكن اليأس لم يتطرق إلى قلبه . . لقد كان شعوره الداخلى يوحى إليه أنه صادق النظر . . . ومضى إلى صديق له يأنس إليه ويعول عليه . . من ذلك النوع الألطف الأرق من البشر . الذى كان يطلق عليه « الأنثى » منذ خمسمائة ألف سنة . . . يوم كان وجود هذا النوع ضرورياً لإيجاد هذا النسل ، أما بعد هذا التاريخ فقد زالت هذه الضرورة . . وبزوالها ضعف الاتصال بين النوعين لهذه الغاية . . حتى بلغ الأمر حداً اختفت معه الفوارق الجنسية بينهما ، بانتهاء الوظائف العضوية . . فإذا هما على الزمن قد صارا شبه نوع واحد لم يحتفظ أحدهما من خصال ماضيه بغير شىء من الرقة فى الطبع واللطف فى التركيب . . ولم يعد المجتمع يميز بينهما أو يذكر ماضيهما ، إنما هو صنف واحد من الإنسان يطلق عليه اسم قاطن الكوكب الأرضى . لأن الأرض كلها هى الأخرى أمة واحدة ومجتمع واحد . . يعيش فى كنف « لجنة من العقول المدربة » هى حكومة الكوكب التى تشرف على إدارة شئونه

العامة، وتنظيم أسباب الراحة لسكانه .. ذهب العالم الجيولوجى الى صديقه اللطيف وقال له :

— هل تثق بى ؟ ..

— نعم

— هل تؤمن بى ؟ ..

— نعم .

— إذن فاسمع ..

وروى له القصة ، وعرض عليه الجمجمة ، وشرح له مايعتقد باسطاً له فى الحجج كلما رأى فى وجهه علامات الدهشة ، فهذا شىء خارق .. بعيد التصور .. لأن الألفاظ نفسها لاتؤدى إليه .. يجب أن تفسر معنى « الفناء » أو « العدم » أو «الموت» تفسيراً محسوساً . وهو أمر لا قبل لأحد به فى هذا العصر ... فلايوجد شىء يموت حولهم .. إنهم لايذكرون وجود الحيوانات على الأرض .. فقد انقرضت كلها منذ مئات الآلاف من السنين .. أبادتها الحروب الذرية والكيميائية التى مسحت وجه الأرض مسحاً وحلقته حلقاً وغسلته غسلا

من كل حيوان ونبات وطائر وسمك. فلم يبق للإنسان غير جوف الأرض يعيش فيه بمصانعه وبمعامله .. يطعم غذاء من غازات كيميائية تطلق فى البيوت تستمد موادها من عناصر الجو وإشعاعات الأجرام .. فضمرت معدته القديمة واختفى جهازه الهضمى ، وفمه وأسنانه . فإذا هو رأس يفكر وأنف يستنشق به غذاءه من الهواء ، وطعامه من الغازات، ويدان ضعيفتان وساقان هزيلتان لقلة الاستعمال ... لم يعد هناك فرق بين إنسان وبحر وكوكب .. إنه مثلها خالد .. ومثلها لاحاجة به إلى أن يعمل بيديه ليعيش .. بل إنه الآن شبه إله .. لا يلد ولا يولد .. يجهل الموت ويعرف الأبد ... ولا يدرك الأمس ولا الغد .

وجد العالم الجيولوجى صعوبة فى أن يصور لصديقه مايخامره من إحساس بنظريته .. لأن الأمر يستوجب شعوراً بالحدود الزمنية .. ليس أصعب من أن تحدث «إلها» عن ماضيه أو مستقبله .. فإن هذين الوصفين لامعنى لهما لمن « يوجد » دائماً .

وأصعب من ذلك أن تحاول إفهام « إله » خالد شيئاً
عن « البداية » أو « النهاية » !.

ونظر الصديق اللطيف الى العالم الجيولوجى بسذاجة
قائلا له :

ـــ إنى أصدقك ، ولكنى .. عاجز عن الفهم.

ـــ حقاً ياصديق إنها لمشكلة .. ومن العسر أن
أطالبك بأدراك شعاع لاأتبينه أنانفسى .. ربما كنت مخطئاً .
ربما كان اشتغالى بتأريخ الطبقة الأرضية يخيل لى أوهاماً ..
إن على ذاته لم يعد له محل ... ولم يعد له احترام فى نظر
العلماء .. ولم يبق غيرى حريصاً عليه متابعاً له .. فالعلماء
يؤكدون أنه ليس هناك شىء يسمى « التاريخ » لأنه
لايوجد خلف « حاضرنا » الخالد غير وهم المخبولين ..
والحق أنى لا أدرى .. هل أنا مجنون ؟. أو أنى أرى شيئاً
لا يراه غيرى ؟!.

ـــ إنك لست مجنوناً ..

ـــ إنك تثق بى .. وهذا يسرنى ، ولكنه لا يقنعنى . إنى

أريد أن ترى ما أرى ..

ـــ سأحاول .. ساعدنى ! ..

ـــ نعم .. أساعدك ... قص علىّ حياتك !.

ـــ حياتى ؟!. حياتى هكذا .. هكذا دائماً .. هكذا ..
إنك تعرفها .. لا شىء فيها يتغير .

ـــ نعم .. لا شىء فيها يتغير ! .. ولكن تذكر ماذا كان
أول الأمر ؟!

ـــ أتذكر ؟ .. ماممنى أتذكر ؟ ..

ـــ صدقت ! . لايمكن أن تكون لنا ذاكرة .. مادمنا
لا نعى الماضى ولا التاريخ ..

لماذا تكد ذهنك أيها الصديق فى هذه الأشياء المبهمة
المريبة .. إنى أخشى عليك .. أخشى أن يصيبك من المجتمع
نقد وازدراء .. إنهم يتهامسون عليك بالفعل .. وينصحون
بالابتعاد عنك .. ويقولون إن بك خللا غير مفهوم ..

ـــ وهل تبتعد عنى أنت أيضاً ؟ ..

ـــ لا .. إنى معك مهما يكن من أمرك ..

— أنا أيضا لا أريد الابتعاد عنك .. مهما يحدث ! .
ماذا أسمى هذا الإحساس ؟! .

وأطرق عالم طبقات الأرض لحظة ... كأنما يبحث عن تعليل لمشاعره الغريبة .. إن كلمة «الحب» كانت هى الأخرى قد انقرضت منذ مئات الآلاف من الأعوام .. انقرضت بانقراض الميل الغريزى بين الذكر والأنثى .. بعد أن تولت المعامل إفراخ النسل .. وبزوال الحب زال الشعر والفن .. ولم يبق مكان لعاطفة غير عاطفة الزمالة أو الصحبة بين المواطن والمواطن من سكان الأرض .. وقلما التهبت هذه العاطفة .. حتى صارت إلى هـــذا اللون الغامض الذى يربط عالم الجيولوجيا بصديقه ! .. لقد زال اتصال «القلوب» وحل محله اتصال «الأفكار» .. لذلك كانت الصلة القلبية بين العالم وصديقه غريبة فى ذلك العصر غرابة ذلك الشعور الخفى الذى يحير نفس العالم الأثرى ..

وقلق الصديق على حال صاحبه فقال له :

— لو استطعت أن توضح لى ؟! . لأول مرة أعجز عن

قراءة فكرك ! .

فرفع العالم رأسه ونظر إلى صديقه مليا ثم قال :

— لأن فكرى مضطرب مشوش .. لا أستطيع أنا نفسى أن أستخلص منه شيئا واضحاً .. كل ما عندى إحساس باهت شاحب سحيق الغور ..

— إحساس بماذا ؟

— إحساس بأنه يجب أن يقع شىء بعد «وجودى» .. يجب أن أحس لهذا الوجود «نهاية» ! .

— نهاية ؟! ..

وبدا الجهد المرهق على وجه الصديق .. عين ذلك الجهد الذى كان يرهق البشر منذ مليون سنة عندما كانوا يحاولون تصور «اللانهاية» ! ..

— نعم يا صديقى اللطيف .. هنالك سر مغلق علينا .. هنالك سعادة منتظرة خلف باب موصد .. هنالك لذة غريبة وراحة عجيبة فى حجرة ممنوعة لم تطأها قدم .

— ألنا أن نأمل فيها ؟ .

— نعم .. لو استطعنا أن «لانكون» !.

— لست أفهم ..

تلك الحجرة الممنوعة علينا .. تلك الحجرة التى تجثم فيها راحة من نوع مجهول لدينا .. أسميها أنا «الموت» ..

— الموت ؟! .

— نعم الموت ..

لفظها العالم فى شبه همس كأنه يحلم ... وكأنه يستعين بإلهامه الخفى ، ويستنير بإشراقه الداخلى ... ليلمح على ضوئه شبح ما يتخيل ... إنه لعسير على الخالدين أن يتخيلوا «الموت» وإن كان الإله يعجز عن شىء ... فهنا مكان عجزه ... أن يكون فى مقدوره أن يموت ... وإن كان قد حرم شيئاً فهذا ولا ريب موضع حرمانه ...

— هذه الراحة ... هذه اللذة .. هذه السعادة ... هذا الذى تسميه «الموت» ... لابد أن تصل إليه ... نصل إليه معاً ، ما دمت تؤمن به ، وأومن أنا بك ...

قالها الصديق اللطيف برقة ملأت نفس العالم ثقة ورجاء

... وانتهى بذلك الحديث بينهما فى تلك الجلسة ... ولم يكن بالطبع حديثاً بالمعنى المعروف قديماً ... فإن هذا الإنسان فى ذلك العصر لم يكن له فم ولم تكن له لغة ... إنما هى الأفكار تنقل من رأس إلى رأس ... وأصحابها جلوس فى صمت ..

***

ذاع خبر العالم الجيولوجى ، وشاعت فكرته ، واستفحل أمره ، وانضم إليه كثير من المتشيعين له ، وأحاط به وبصديقه المتحمس رهط من المؤمنين به ... وكان هذا أول نبى ظهر منذ مئات الآلاف من الأعوام ... فإن زوال الألم والأمل لم يدع حاجة إلى رسالة أو رسل ... أما وقد ظهر الأمل من جديد فى صورة تعطش إلى راحة مجهولة ، يبشر بها ذلك الإنسان الحالم الآمل المؤمن .. فلا أيسر من أن يجد أتباعاً يدينون بما يدين .. ويسيرون إلى حيث يسير .

ولكن ! ... كانت أمامه عقبة ، هى «المعجزة» التى يطالبه بها كفاره والجاحدون لأفكاره .. وهم ما كانوا يرضون منه بغير معجزة واحدة : أن يميت لهم الحى !.

تلك كانت ساعة حرجه الكبرى . . . كيف يستطيع ذلك بمفرده . . إن علماء الكيمياء وعلم الأحياء يقفون منه موقف الخصومة والتكذيب . .

لا بد أن تعينه قوة خفية ، إذا كان حلمه حقاً ، ووحيه صدقاً ، وإلهامه صحيحاً . .

وهنا لأول مرة أيضاً منذ أكثر من مليون سنة ، يعود الشعور بوجود «الله» الأكبر إلى الظهور فى النفس الإنسانية من جديد !

وصاح ذلك النبى فى أعماق نفسه :

— إذا لم أكن خدعت نفسى وخدعت أتباعى ، فلا بد أن تعينى على «المعجزة» قوة فى الكون أعظم من جميع القوى ! . .

وتجلت هذه «القدرة» كما تجلت لبعض الأنبياء من قبل ، لأنها أرادت أن يكون هنالك تحول فى مجرى الإنسانية فى ذلك العصر . .

وإذا بنيزك ضخم من نيازك السماء يضرب وجه الأرض

ويغور فيها فيسحق رأس إنسان فوق سطح بيته بجوف الأرض ، عندئذ أسرع النبى وأتباعه إلى ذلك الإنسان ليرقبوا ما وقعوا له ، ولكن الحكومة علمت بالأمر ، فبادرت تستخلص ذلك الإنسان من أيدى الأتباع ، لتشرع فى ترميم رأسه . . ورفض الأتباع تسليمه ، وأصرت الحكومة ، فوقعت فتنة ، وحدث شغب . . هو الأول منذ عشرات الآلاف من السنين . . وانتصرت الحكومة آخر الأمر ، وحملت الرجل المسحوق الرأس حيث عالجوه أو أخفوه . . لا أحد يدرى . . أما النبى فاعتقلوه وقدموه إلى المحاكمة فشهد عليه زملاؤه العلماء بأنه مخبول . . وأن خباله خطير . . فحكم عليه بما يحكم على المجرمين والمفسدين . . أى باستبدال رأسه . . . وهى عقوبة تعادل إطاحة الرأس فى الأزمان القديمة، فقادوه إلى معمل كهربائى . . . وسلطوا على خلايا تفكيره أشعة خاصة ، فإذا هى تضعف ، فأحلوا محلها تفكيراً آخر هادئاً دمثاً بسيطاً . . . لا شخصية فيه ولا عنف ولا إرادة . .

وهكذا اختفت شخصية النبي وإن لم يختف جسمه . . .

ولكن رسالته ظلت باقية ... فقد لبث صديقه وأتباعه
ينشرون فكرته خفية عن الحكومة .. مؤكدين للناس أنهم
رأوا « الموت » فى شخص ذلك الإنسان المسحوق الرأس ...
ولولا أن الحكومة سارعت باختطافه لكانت « المعجزة »
بادية للعيان فى كل مكان ...

***

مضى ألف عام اشتعلت خلالها العقيدة الدينية كما
تشتعل الجمرات تحت الرماد ... وآزر الحركة بعض أصحاب
العقول الممتازة ففصلوا فى مبادئ الرسالة وشرعوا ، ووضحوا
فكرة « الله » الأكبر الذى فى مقدوره منح الإنسان سعادة
روحية ، وراحة علوية ..

إلى أن أتى يوم أدرك فيه الأتباع أن النظام القائم وحده
هو الحائل دون تحقيق ذلك الحلم الإلهى ..

فأن العلم ، ذلك الحارس الصارم لجسم الإنسان .. الذى
يحيط بقاءه بسياج من حديد .. ويعنى بخلود الجسد هذه العناية ،
قد حجب عن الإنسانية عوالم الروح ومفاتنها ..

وتمكنت هذه الفكرة من نفوس الأتباع .. فقاموا
ذات يوم بثورة جارفة اقتحموا فيها المعامل وحطموا الآلات ..
فاضطرب النظام ، وسادت الفوضى .. وتعذر وصـول
الغازات المغذية إلى كثير من السكان ... فظهرت أعراض
المرض على البعض ..

وساءت حال البعض إلى حد الخطر ، وتوالت هجمات
الأتباع ، وزاد عددهم ، واشتد ساعدهم ، حتى استطاعوا
يوماً أن يتجمعوا ويعتصموا بناحية من الأرض ، استقلوا
بها وأقاموا عليها صرح دينهم الجديد ، فطرحوا سلطان الإله
القائم « العلم » الذى أعطاهم جبروت « العقل » وسلبهم نعمة
« القلب » ولذة « الغريزة » .. وآمنوا بإله الكون الخالق
للطبيعة .. فتركوا له والطبيعة الأمر ..

ومرت مئات الآلاف من السنين ، فظهر « الموت » ،
وبظهوره ظهر « الخوف » ، ثم غريزة المحافظة على النوع ...
ولما كانت معامل النسل قد زالت دولتها .. فقد بعثت الطبيعة
فى الأجسام رغبة الجنس وعندئذ بدأ النوع يتفرع من

جديد إلى ذكر وأنثى ، وظهر « الحب » . .

وبظهوره ظهر « الفن » و« الشعر » . .

وهكذا حكمت الطبيعة بأُلّهها الأكبر الأرض مرة أخرى .. وعادت الأديان السماوية .. وعاد الشعراء ينشدون ويقولون :

« أيها الخالق الأزلى . . لك أنت وحدك الخلود والجبروت .

أما نحن فلا نريد أن نكون سوى بشر . .

لنا جسم مرتو ، وقلب متقد ، وعقل متئد . .

أيتها الطبيعة الرحيمة . . لك أنت وحدك عمر الأبد . .

أما نحن فلا نريد غير عمر الندى . .

نهبط من السماء عند الفجر . .

ونصعد إلى السماء عند الضحى ! . . »

الاختراع العجيب ! . .

اختراع عجيب ، ليس بأعجب المخترعات ، فما من شىء اليوم يثير دهشتنا أو يصدم خيالنا بعد أن عشنا العصر الذى نرى فيه ذرة لا ترى تتحطم فتخرج منها قوة تحطم مدينة عظيمة ، ومع ذلك فأن الاختراع الذى أتحدث عنه سوف يكون له أشد الخطر على مستقبل البشر .

هذا الاختراع كغيره من المخترعات فكرة ليست جديدة لقد تخيلها « ويلز » فى قصته « آلة الزمن » هو « جهاز » مثل جهاز الراديو يستطيع كل إنسان اقتناءه . . له جملة مفاتيح ، إذا أدرت المفتاح الأول شاهدت فى مرآة الجهاز ما يحدث لك بعد عام وإذا أدرت المفتاح الثانى أبصرت ما يقع لك بعد خمسة أعوام ، وإذا أدرت المفتاح الثالث رأيت مستقبلك بعد عشرة من الأعوام . . . ولم يدخل بعد على هذا الجهاز من التحسينات ما يمكن الأفراد من رؤية مستقبلهم أبعد من هـــذا المدى .

قد يسأل سائل : وأين هذا الجهاز ؟ . ولماذا لم يعرض حتى الآن فى الاسو ق ؟

حقيقة الأمر أن الشركة الامريكية التى اشترت حقوق هذا الاختراع وتكفلت بصنعه وتعميمه ، قد توقفت فجأة عن المضى فى هذا المشروع ، ذلك أن المهندس الذى تولى تجربة أول جهاز تم صنعه لم يلبث أن انتحر بعد أيام، وأراد أحد مديرى الشركة أن يجرب الجهاز مدفوعاً بحب الاستطلاع ، فلم يلبث هو الآخر أن انتحر بعد أسابيع . وتوالت سلسلة الانتحارات فى ذلك المصنع بين العمال والمهندسين والخبراء والمديرين ، وكل من جرؤ على إدارة مفاتيح مستقبله فى ذلك الجهاز العجيب .

قام البوليس الأمريكى عندئذ بالتحقيق. فلم يظفر بجواب أو بتعليل أو بتفسير ، لأن من مات قد دفن ومعه الجواب والتعليل والتفسير .

إلى أن كان يوم أسعف الناس مهندساً حاول الانتحار ، وأنقذوه هو وسره من الموت؛ ودفعوا به إلى المحققين، فسألوه :

ــ لماذا أردت الموت ؟ .

ــ إننى لم أتحمل الحياة .

ــ هل وقع لك كوارث أثقلت كاهلك ؟ .

ــ لا . . . لم يقع شىء بعد . .

ــ إذن أنت تخشى وقوعها فى يوم من الأيام ؟ .

ــ لم يحدث لى شىء فى مدى عشرة أيام .

ــ هل أنت واثق من ذلك ؟ .

ــ لقد رأيت ذلك بعينى رأسى فى مرآة الجهاز . . .

ــ ماذا رأيت ؟ .

ــ رأيت نفسى كما سأكون بعد عام وبعد خمسة أعوام ، وبعد عشرة أعوام . . . لم أر شيئاً جديراً بالنظر أكثر من أن كرشى قد برزت لى وبعض التجعيدات فى الوجه وبعض الشيب وبعض الترهل . . . وزيادة فى مرتبى ، وطفلة جديدة أنجبتها امرأتى لها عويل يصدع رأسى . . . يا لها من حياة مملة ! . . أأنا أسير الى هذا الغد السخيف ! . . . لطالما تخيلت المستقبل أجمل من ذلك

وجها ! . . فأذا هـذا الوجه قد أصبح معروفاً لى بملامحه وخطوطه وقسماته وندوبه كأنه وجه زميل عادى تافه، يصاحبنى فى العمل ويلازمنى فى المسكن .. لا أسمع منه جديداً ولا أرى فيه طريفاً . . كلا . . إن المقام مع مثله محال . . قد يدفعنى إلى التريث والاحتمال أملى فى أن يتغير فى الغد شيء . ولكن إذا كنت الآن أرى الغد بعينى . . فما قيمة الغد ؟ ! . وإذا كنت أعيش فى انتظار ما تأتى به الأيام . وجاءت الأيام تلقى فى لحظة بكل ما لديها فى حجرى ، فما معنى الانتظار ؟ ! . . وهذا ما فعلت بكل بساطة .. لم أجد للانتظار معنى . . بعد أن فقدت عنصر المفاجأة فى حياتى ! . .

فتأمل المحقق قوله مطرقاً مفكراً . . ثم قال له وهو يحك رأسه :

ـــ لا أستطيع أن أوافقك على هذا اليأس من الحياة

فقال المهندس الذى شرع فى الانتحار :

ـــ ليس هذا يأساً من الحياة . إنك لا تستطيع أن تفهم حقيقة إحساسى . . لأنك لم تر ما رأيت . إنه على كل حال

ليس اليأس . بل شعوراً آخر . . لا أدرى كيف أصفه لك . . انتظر ألم يسبق لك أن ذهبت إلى السينما فشاهدت رواية من آخرها بعد أن فاتك الشطر الأول . .

ـــ بالطبع حدث لى ذلك . .

ـــ ماذا كنت تفعل بعدئذ ؟ .

ـــ كنت أنتظر العرض الثانى لأشاهد ما فاتنى من الرواية . .

ـــ عظيم ، وبعد أن تشاهد ما فاتك وتأتى الحوادث الأخيرة التى سبق لك مشاهدتها . . ماذا كنت تصنع ؟ .

ـــ كنت أنصرف طبعاً . .

ـــ قبل الختام ؟ .

ـــ طبعاً .

ـــ ولماذا تنصرف ؟ .

ـــ ولماذا أنتظر وقد عرفت الرواية ؟ .

ـــ هذا بالضبط ما صنعته أنا . . . بمجرد أن شاهدت الحوادث الأخيرة من حياتى فى مرآة ذلك الجهاز . . عرفت

روايتى بكل حوادثها وعقدها ومفاجآتها فلماذا تريد منى أن أنتظر ؟.

هنا فقط فهم المحققون كارثة ذلك الجهاز المخيف ، إنه يجرد « الحياة الآدمية » من عنصر « الغيب » كما تجرد « الرواية السينمائية » من عنصر « المفاجأة » وبهذا التجرد تتفكك عقدة الرواية ... فتصبح شيئاً لا يستطيع أحد أن يحياه ولا أن يراه .

الاسطى عزرائيل !..

الحياة أقوى من الموت . تلك حقيقة يراها من يتأمل حوادث يوم واحد من أيامه ، إن الموت رابض لنا فى كل خطوة ، ومع ذلك نتفاداه وننجو منه فى أغلب الأحيان ونقفز من فوق حبائله ، لأن يد الحياة تقودنا وتنقذنا . الموت والحياة يلعبان منذ الأزل لعبة واحدة لا يغيرانها ، هى اللعبة التى يسميها الأطفال « استغماية » . الحياة والموت أحدهما يختفى للآخر ويتربص به فى كل مكان ، والآخر يقول له : « أراك وأعرف موضعك » ! . أرواحنا نحن الآدميين المساكين معلقة بكل شىء وبأضأل شىء . إنها معلقة بأرجل الذباب ، وإبر البعوض . ويد سائق السيارة ، والقطار والطيارة ... بل إنها قد تهتز وتتأرجح بين أصابع حلاق يتناولك بالتزيين والتجميل . وأنت أبعد الناس عن التفكير فى شر أو خطر .

ذهبت فى أوائل الصيف أحلق ذقنى عند الحلاق ، وأنا بالحياة فرح مستبشر ، أغنى فى أعماق نفسى ، وأصغى إلى أغانى الفلاحين وهم يقودون صفوف الابل محملة بالبطيخ فى آخر شوارع القاهرة ، وغرقت فى المقعد ، وأسلمت رأسى للحلاق ، وأغمضت عينى مستسلما لأعذب الأحلام ، مستقبلا بوجهى النسيم الصناعى من المروحة الكهربائية . ووضع الحلاق على ذقنى الصابون الرطب ، فشعرت بمتعة وراح يسن الموسى حتى لمع نصلها ، وجاء فأخذ رأسى بين يديه ، ثم همس فى أذنى قائلا بلهجة غريبة :

— لا مؤاخذة !.. إنى أتوسم فيك .. فراستى لا تخيب .. لى عندك طلب بسيط .

ورفع الموسى عن صدغى منتظراً .. فبادرت أقول له :

— تفضل !..

فأمسك برأسى واستأنف الحلاقة وهو يقول :

— هل تعرف حضرتك أحداً فى مستشفى المجاذيب ؟ .

فدهشت ، ولكنى قلت بهدوء :

— إذا كانت فراستك التى لا تخيب توسمت فىّ أنى كنت نزيل الدار فأنى أشكرك !..

فأسرع يقول متأسفاً :

— العفو .. العفو .. لم أقصد ذلك .. إنما أردت أن أقول إنى أتوسم فيك حب الخير ، وأنك لابد أن تكون صاحب نفوذ وتعرف أحداً من أطباء المستشفى .

— لماذا؟ .

— لى شقيق مجنون أريد أن أخرجه .

— مجنون ؟. وهل شفى ؟ .

— إنه لم يكن مجنونا خطراً .. ولكنها دعوى باطلة من المستشفى كما تعلم حضرتك ... إنهم دائماً يريدون حبس الناس بالظلم ، كل ما فى الأمر أنه أحياناً تتراءى له خيالات ويتصور تصورات لاضرر فيها ولاغبار عليها .. فلا هو هاج ولا ماج ولا صرخ ولاصخب ولا ضرب ولا بطش ، ولا أحدث تلك الغوغاء والضوضاء التى يحدثها المجانين الذين يحبسون فى مستشفى المجاذيب .

— عجباً ! . . وماذا فعل إذن ؟ حتى استحق أن يحجز ؟

— لاشيء ياسيدى . . . المسألة بسيطة : شقيق هذا كان حلاقاً مثلى . . وكان يشتغل ذات صباح فى أمان الله . وكان الوقت صيفاً ، والحر يغرى بالعطش . . . كما لايخفى عليك . وكان فى يد شقيق رأس زبون لايتخير على حضرتك فشاءت له تخيلاته أن يتصور رأس الزبون بطيخة . . . وكانت فى يده الموسى فأراد أن يشقها بالطول .

فارتعدت ، وصحت فى الحال :

— يشق ماذا ؟ .

— يشق البطيخة . . أعنى رأس الزبون ! . .

قالها الحلاق بكل هدوء وبنبرة طبيعية . .

فجمد الدم فى عروقى ، وكان رأسى وقتئذ فى يده والنصل الحاد البراق يمر عند الحلق . . . فأمسكت أنفاسى خوفاً وجزعاً . . ولكنى لم ألبث أن تجلدت وقلت له بوداعة ورفق لأدخل عليه الرضى وعلى نفسى الاطمئنان :

— طبعاً شقيقك هذا شاذ فى العائلة . . .

فقال بهدوئه المعتاد ونصله فوق حلقى :

الحقيقة أن هذا شيء فى العائلة كلها . . أنا نفسى أحياناً تخطر لى تصورات عجيبية . . . خصوصاً فى موسم البطيخ . . كلام فى سرك شقيق معذور ! . .

ولمعت عين الحلاق ببريق عجيب يضاهى بريق النصل الذى فوق حلقى ، فأيقنت بقرب الساعة ، وتشهدت على نفسى وترحمت .

وأغمضت عينى مستسلماً لا للذيذ الأحلام هذه المرة بل لمجيء الموت وخروج الروح . ولم أفتحهما إلا على صوت رشاشة الكلونيا وهى تمطر وجهى . . . وعلى صوت الحلاق وهو يقول لى : نعيما . . .

فانتفضت ونهضت كمن ولد من جديد ، ودفعت حسابى والحلاق فى أثرى يوصينى بشقيقه والتوسط فى إخراجه وأنا لا أسمع منه ولا أعى . . . وما إن وضعت قدمى فى الطريق حتى تنفست الصعداء ، وأقسمت أن أحلق بيدى أو على الأقل لا أدخل عند هذا الحلاق فى موسم البطيخ . . .

معجزات وكرامات !..

استيقظ الراهب مبكراً كعادته.. لم تسبقه غير العصافير الناهضة من أعشاشها .. وقام إلى صلاته وعبادته وعمله فى تلك البيعة من إقليم الشرق .. فقد كان ذلك القسيس روحها ونورها.. له عند رجال الدين منزلة.. وله عند الناس احترام.. وكان أمام الباب نخلة صغيرة ، غرسها بيده واعتاد أن يسقيها قبيل الشروق .. وأن يتأمل الشمس يبزغ طرفها من الأفق أحمر كالبلحة ، ثم ترسل أشعتها إلى السعف المندى ، فتسقط عنه قطرات الفضة .. لتلفه فى خيوط كالذهب ..

فرغ القسيس فى ذلك الصباح من سق النخلة .. وهم بالدخول، وإذا أمامه جماعة يبدو عليهم الغم والحزن .. تجرأ واحد منهم وقال بنبرة الضراعة :

— أبونا !.. أنجدنا !.. وليس من ينجدنا غيرك !.. امرأتى على فراش الموت .. وهى تلتمس منك أن تباركها ..

قبل أن تلفظ النفس الأخير .

— أين هى ؟.

— فى قرية مجاورة .. والمطايا حاضرة !.

وأشار الرجل إلى حمارين مسرجين فى الانتظار ... فقال الراهب :

— إنى على استعداد يا أبنائى !... تمهلوا حتى أرتب شؤونى ، وأخبر إخوانى ، وأعود إليكم لتمضوا بى .

فقالت الجماعة فى صوت واحد :

— لا نملك دقيقة !.. المرأة تحتضر .. وربما وصلنا إليها بعد فوات الأوان .. امض معنا الآن من فورك .. إذا أردت أن تكون بنا باراً كريماً .. وللمرأة التى تموت منقذاً رحيماً .. والمكان قريب .. وستذهب وتعود قبل أن تستقر الشمس فى الضحى !.

— هلموا بنا !..

قالها القسيس بصوت فيه حماسة الشهامة وحرارة المروءة ...

وتقدم والجماعة خلفه حتى اقتربوا من الحمارين .. فركبوا أحدهما ... وركب زوج المحتضرة الآخر .. وانطلقوا خارج البلد .

وجعلوا يضربون الأرض ساعات .. والقس يسأل عن الموضع .. وهم يحثون الحمار بالنخس قائلين : «وصلنا» ...

فما لاحت لهم القرية إلا وقد انتصف النهار ودخلوها فاستقبلتهم كلابها بالنباح وأهلها بالترحيب ... وتوجه الجميع إلى الدار بالقرب من «دوار الناحيـة» ... وقادوا القسيس إلى قاعة ... وجد فيها المـرأة طريحـة على فراش ... وقد شخصت ببصرها إلى السماء ... ناداها فلم تجب .. فهى من المنية قاب قوسين ! ... فشرع يستنزل عليها البركة ... ولم يكد يفرغ من ذلك حتى لفظت آهة طويلة ... شفعتها بشهيق عميق .. ظن معه القسيس أن روح المرأة تفيض .. ولكن أهدابها ارتعشت ، ونظرتها لانت وتلفتت تهمس :

— أين أنا ؟ ...

فقال القسيس دهشا :

— أنت فى دارك ! ...

— علىّ بشربة ماء ! .

فصاح أهلها من حولها :

هاتوا القلة ! هاتوا الجرة !

وتسابق القوم إلى الإناء فأحضروه .. وشربت المرأة طويلاً وتجشأت ، ثم قالت :

أما من طعام ؟ .. إنى جوعى ! ...

فبادر كل من فى الدار يأتى إليها بطعام .. وطفقت المرأة تلتهم الأكل .. والعيون من حولها تلتهمها دهشة وعجبا ثم تركت فراشها ونهضت تمشى فى الدار كاملة الصحة موفورة العافية !

وعندئذ خر القوم على يدى القس ورجليه ، يشبعونها لثماً وتقبيلا ... ويصيحون :

— أيها الرجل المبارك .. لقد حلت بركتك فى الدار وأحييت بركتك الميتة ! ... ماذا فى قدرتنا أن نعطيك ؟ ...

وفاء منا بواجب الشكر ... واعترافاً منا بالجميل ! .

فقال القسيس الذى أذهله الحادث :

ــ إنى ما صنعت شيئاً أستحق عليه أجراً أو شكراً ولكنها قدرة الله ...

فقال صاحب الدار :

ــ سمها ما شئت ! ... إنها على كل حال معجزة ! ... أراد الله أن تتم على يديك أنت ، أيها الرجل المبارك ! ... ولقد حللت فى دارنا المتواضعة .. وإنه لشرف وحظ ونعمة ... ولا بد أن نقوم بحق الضيافة ... على قدر ما تسمح به حالنا ! ...

وأمر بحجرة منعزلة فأعدت للضيف ... وكلما استأذن القسيس فى الانصراف ، حلف صاحب الدار بكل محرج من الأقسام ألا يدع ضيفه المبارك يذهب قبل ثلاثة أيام ... أقل ما يجب نحو من أنقذ حياة امرأته . وجعل يحفه بالعناية ويغمره بالتكريم ... حتى انقضت مدة الضيافة ... فأسرج المطية .. وحملها بالهدايا ... من فطير وعدس ودجاج

... ووضع فى يد القسيس خمسة جنيهات ... لصندوق الكنيسة ... ولم يكد يشيعه إلى الباب ويقيمه على الحمار حتى أقبل رجل يلهث وارتمى على قدم القسيس ... يتوسل ويقول :

ــ أبونا ! ... حديث معجزتك بلغ القرى المجاورة .. ولى عم فى مقام أبى على فراش الموت .. وهو يأمل فى بركتك .. فلا تترك روحه تصعد قبل أن تحقق أمله ! .

فقال القسيس متردداً :

ولكنى يا ابنى .. قد تهيأت للعودة ! ..

ــ هذا أمر لم يستغرق منك وقتاً .. ولن أدعك حتى تذهب معى إلى عمى ..

وأمسك بزمام الحمار . وسار به .. فقال القس :

ــ وأين عمك هذا ؟

ــ ها هنا .. على مسيرة دقائق ..

فلم ير القسيس بداً من الإذعان .. وسار مع الرجل ساعة إلى أن دخل القرية الثانية .. ورأى فيها داراً كالدار الأولى .. ومريضاً على فراش .. قد أوشك على الموت .

وحوله أهله يتقلبون بين اليأس والرجاء .. فما إن دنا القس
من المريض واستنزل عليه البركة حتى حدثت المعجزة .. فإذا
المحتضر يهب قائماً يطلب الطعام والشراب .. والقوم من
الأمر فى دهشة .. ويحلفون بالأيمان المغلظة أن يؤدوا
نحو الرجل المبارك واجب الضيافة .. ثلاثة أيام بالتمام ..

وانقضت مدة الضيافة بين تكريم ورعاية وحفاوة
وعناية .. وشيعوا الضيف إلى أبواب القرية مثقلا بالهدايا..
وإذا رجل من قرية ثالثة يفد عليه، ويدعوه إلى زيارة قريتهم
لتحل فيها البركة .. ولو لمقدار ساعة .. فإن شهرة القسيس
المبارك قد طبقت جميع القرى .. وما استطاع القس من الرجل
خلاصاً ولا فكاكاً .. فقد قاد ذلك الرجل لجام حمار ..
وذهب به إلى دار فى قريته .. وجد فيها غلاماً كسيحاً .. ما ن
لمسه القس حتى نهض يركض على قدميه ويجرى ... بين تهليل
أهل الدار ... وهتاف الصغار والكبار .. وأقسم الجميع
على واجب الضيافة نحو صاحب المعجزات ... فأدوها على
أحسن وجه .. ثلاث ليال، لا تنقص ليلة، أسوة بغيرهم ...

حتى إذا انتهت المدة، قاموا إلى الضيف فأضافوا هدايا جديدة
إلى ما معه من هدايا .. حتى كاد ينوء بها حماره ... ونفحوه
من المال فوق ما منح فى القريتين السابقتين من مال .. حتى
اجتمع له ما يربو على عشرين جنيهاً ... ووضعها فى كيس
أخفاه فى صدره ... وامتطى الحمار .. وطلب من أهل
الدار أن يحرسوه حتى بلده ... فهبوا كلهم إليه ... وساروا
خلف مطيته .. وهم يقولون :

— نحرسك بقلوبنا ... ونفديك بأرواحنا ! ... ولن
نسلمك إلا إلى ذويك ... فأنت عندنا تساوى ثقلك ذهباً !.

فقال القس ولم يفطن إلى عبارتهم :

— سأحملكم بعض المشقة ... ولكن الطريق غير
مأمونة ... والعصابات اليوم منتشرة فى الأقاليم كما تعلمون!.

فقالوا :

— حقاً ... إنهم هاهنا يخطفون الآن الرجال فى رائعة
النهار ! ...

فقال القس :

— حتى السلطة عاجزة عن دفع هذا الشر المستطير . .

لقد قيل لى إن عصابات الخطف تستوقف اليوم السيارات العامة فى الطرق الزراعية . . . وتصعد تجيل الأنظار فى الركب . . فمن وجدته على شىء من الوجاهة والثراء . . . أنزلته وجرته معها . . . لتطالب أهله بعدئذ بدية كبيرة . . . وقد كان ذلك يحدث أحياناً وبعض رجال الأمن فى السيارات . . .

علمت أن اثنين من رجال الحفظ كانا ذات مرة بين ركاب سيارة من تلك السيارات . . فلما اعترضتها العصابة ، واختارت من الركب من اختارت ، استغاث برجلى الحفظ الحاضرين . . .

فما كان منهما لخوفهما من بأس اللصوص إلا أن قالا للمخطوف : انزل معهم . . . انزل وخلصنا ! .

فضحك القوم ، وقالوا للقس :

— اطمئن ! . . مادمت معنا فلن تنزل من فوق حمارك إلا فى بلدك ! . .

— إنى أعرف شهامتكم ! . . . لقد غمرتمونى بكرمكم وتقديركم وسخائكم ! .

— لا تقل ذلك . . . أنت كنزنا ! . .

وساروا خلف القس يتحدثون بمناقبه ويفيضون بذكر معجزاته . . وهو يصغى إلى حديثهم . . ويتأمل ما وقع ، وأخيراً صاح :

— حقاً . . هذا شىء عجيب . . ما حدث لى هذه الأيام ! .

أترى إلى بركتى وحدها يعود الفضل كله فى هذه المعجزات ؟.

فقالوا لا:

وهل تشك فى ذلك ؟ .

— إنى لست نبيا . . حتى أقوم بذلك كله فى سبعة أيام . .

ولكنكم أنتم الذين جعلتمونى أصنع هذه المعجزات ! . .

فقالوا جميعاً فى صوت واحد :

— نحن ؟ ! . ماذا تعنى ؟ .

— نعم . . أنتم . . المصدر الأول ! . .

فتبادلوا النظرات ، وهمسوا :

من قال لك هذا ؟ ! .

فمضى القس يقول باقتناع :

— إيمانكم .. إنه الايمان جعلكم تحققون كل ذلك ..
إنكم لاتعرفون ما فى نفس المؤمن من قوة ...
الإيمان قوة ياأبنائى .. الإيمان قوة ! . المعجزة ثاوية فى
قلوبكم .. كالماء فى الحجر .. لا يفجرها غير
الإيمان ! ..

وظل بمثل هذا الكلام يتحدث ... والقوم خلفه يهزون
رؤوسهم .. وأمعن فى حماسة القول وحرارة الوعظ .. فلم
يفطن إلى القوم خلفه .. وهم يتسللون ، الواحد بعد الآخر .
فما بلغ حدود بلده وثاب إلى نفسه ، والتفت خلفه يشكر
مشيعيه وحارسيه .. حتى عقد لسانه العجب .. لم يجد
خلفه واحد إلا الحمار الذى يحمل أشياءه !

ولم تطل دهشته .. فقد وجد ذويه وإخوانه ومرؤوسيه
من رجال الكنيسة .. يندفعون نحوه .. يضمونه ويلثمون
يده .. وعبرات الفرح والتأثر تسيل على خدودهم .. وتماسك
واحد منهم وقال :

— عدت إلينا سالماً .. أخيراً ! .. لقد وفوا بوعدهم

فليأخذوا الأموال وليعطونا « أبونا » ! . كل مال فداك
يا « أبونا » ! .

وفطن القس إلى كلمة المال ، فصاح :

— أى مال ؟ ..

— المال الذى دفعناه للعصابة ! ..

— أى عصابة ؟ ! .

— التى خطفتك ! .. لم ترض بأقل من ألف جنيه أول
الأمر .. قائلين : إن ثقلك يساوى ذهباً ! .. ولكننا
توسلنا إليهم أن يقبلوا النصف .. فرضوا أخيراً .. ودفعنالهم
دية إرجاعك من صندوق الكنيسة خمسمائة جنيه ! ..

فصاح القس :

— خمسمائة جنيه ! .. دفعتموها من أجلى ! .. قالوا
لكم إنى كنت مخطوفاً ؟ ..

— نعم ... بعد اختفائك بثلاثة أيام جاءنا جماعة ..
وقالوا إن عصابة خطفتك فى الصباح وأنت أمام الباب
تشق نخلتك ! .. وأقسموا لنا إنك هالك إن لم ندفع

لهم دينك... أما إذا دفعنا فأنك تحضر لنا سالماً بعد ثلاثة أيام من الدفع !.

فتأمل القس هذا القــول، وكر بذاكرته إلى ما وقع، وقال كالخاطب نفسه:

— حقاً.. هذا معقول هؤلاء الموتى والمرضى والعجزة الذين هبوا ناهضين من بركتى !.. يالها من براعة !.

وأقبل ذووه من جديد يفحصون جسمه وثيـابه قائلين فرحين:

— كل شيء يهون إلا سلامتك يا «أبونا» !.. لعلهم لم يسيئوا إليك فى أيام خطفك !.. ماذا صنعوا لك ؟.

فقال وهو ذاهل:

جعلونى اصنع معجزات... ولكنها معجزات قد كلفت الكنيسة ثمناً باهظاً !..

مؤتمر الحب !..

كانوا أربعة حول مائدة فى «قهوة» على شاطىء النيل... ينظرون إلى غروب الشمس صامتين.. ويتأملون كالحالمين أشعتها الشاحبة تلون بحمرة خفيفة قلاع المراكب البيضاء، كما كان الحياء — فيما مضى — يلون وجه العذراء.

هؤلاء الأربعة هم: صحفى وشاعر وموسيقى وامرأة، كل شيء فيهم كان ينم على أن المرأة معبودتهم، ولكنهم يكتمون... أما هى فلم تظهر بعد إلى أيهم مالت؟ ولا أيهم اختارت؟...

طال صمتهم حتى ضجر أحدهم، فصفق بيديه وصاح:

— أفيقوا... وافتحوا لنا...

— زجاجة «شمبانيا» !...

قالها الموسيقى على عجل.. فقاطعه الشاعر:

— بل موضوعا نتحدث فيه.

فقال الصحفى :

-- فى السياسة بالطبع

ـــ أعوذ بالله !. . . إنى أقابل هذا الاقتراح بالرفض. . .

ـــ أتريد أن يكون لك أنت أيضاً فى مجلسنا هذا حق «الفيتو» أو الاعتراض والنقض ؟!.

فتدخل الشاعر حسما للنزاع :

ـــ إذا أردتم الإنصاف فإنى أقترح أن يكون الموضوع مما يهمنا جميعاً . . . ابحثوا عن موضوع يهم الجميع ! .

ـــ الحب .

أطلقتها المرأة كما تطلق قنبلة صاروخية. . . بسرعة وبغير تردد ، وبنبرة الواثق المطمئن. . .

ـــ الحب ! ؟ .

خرج اللفظ من أفواه الرجال ، كما تخرج كلمة «آمين» من أفواه المصلين. . .

ومضت المرأة تقول :

ـــ إنه بالتأكيد يهمكم أجمعين. . . إنه يهم الصحفى . . .

وهل تستطيع أيها الصحفى أن تنكر أن أعجب خبر نشر فى القرن العشرين هو حب ملك الإنجليز لليدى سمبسون، ونزوله عن العرش الضخم من أجل هذا الحب !؟. وأنت أيها الشاعر هل تجحد أن الحب هو الذى أثار حرب «طرواده» وألهم «هوميروس» الإلياذة أخلد شعر على الدهر ؟. وأنت أيها الموسيقى هل تنفى أن المزمار منذ وجد والقيثارة منذ صنعت لها هدف غير التعبير عن الحب ؟!.

فقال الجميع بصوت واحد :

ـــ صحيح .

وسكتت المرأة سكوت المنتصر الذى اعتاد الظفر . . .

ولكن الرجال الثلاثة ما لبثوا أن التفتوا إليها وسألوها بلسان واحد :

ـــ وأنت ؟ .

ـــ أنا !؟ . .

وبدت الحيرة فى وجهها قليلا . أمجانين هم؟ أتسأل امرأة عن أمر هو بالنسبة إليها البداهة عينها . . ولكنها تماسكت

وتصنعت ومثلت ، وهى بالسليقة خير ممثلة .. وقالت :

ـــ الحب ؟! لست أدرى ما هو ؟ . أيها الصحفى وأنت أيها الموسيقى ، ثم أنت أيها الشاعر ، أخبرونى : ما هو الحب ؟ ومن استطاع منكم إقناعى فاز بقلبى !

وغرقت فى مقعدها .. وأسندت رأسها إلى كتفها . وتأهبت للاستماع إلى الرجال الثلاثة .. وهم يتبارون أمامها لنيل الجائزة الكبرى !.

تنحنح الصحفى .. وهرش رأسه ثم قال :

ـــ اللهم اجعل قلبها من نصيبى ! .. تريدين أن تعرفى ما هو الحب ؟ .. الحب هو « خــبر » يستق من القلب ويسأل فيه العقل فيكذبه .. ولكن القلب يؤمن به ويجازف بأعلانه ، متحملا وحده مسئولية النشر ! ..

فقال الموسيقى :

ـــ بل الحب « لحن » يعزف على أوتار القلب وكلما قطع العقل منه وتراً ، زاد اللحن طرباً !

وقال الشاعر :

ـــ إنما الحب « قصــيدة » تنفجر من القلب معانيها .
وتخبو روعتها إذا وضع العقل أوزانها !

فقالت المرأة :

إنى لم أسألكم تعاريف   إنما أريد منكم تجاريب .

قولوا لى ماذا يحس كل منكم إذا اخترته حبيباً لقلبى ؟ .. أنت أيها الصحفى بماذا تشعر ؟ ..

فقال الصحفى :

ـــ أشعر أنى أغار عليك من هذه الشمس الغاربة .. لو لمست أشعتها خديك .. خشية أن تخطف وهى ذاهبة ، شيئاً منك . ولن أسمح بابتسامة منك تلق إلى هذين الصديقين بل اللصين .. إنهما سينقلبان فى نظرى نشالين يتربصان بلؤلؤة من لآلىء بسماتك وكلماتك ونظراتك .. لن أدع مخلوقاً يأمل فى ذرة من فتات مائدتك الحافلة بالسحر والفتنة . كل الرجال يصبحون فى عينى قطاع طرق إذا اقتربوا من كنوزك .

قالت المرأة باسمة :

ـــ وما بالك الآن هادئاً ، لا تحرص ولا تغار ؟! .

— أحرص وأغار الآن على ماذا ؟ . . إن عطفك علينا
الساعة نحن الثلاثة لطيف ، ولكنه لا يدفعنى إلى شىء .
وأين هو ذلك الذى يحرص دون الباقين على أن يسور قطعة
أرض يملكها بالمشاع مع آخرين ؟ . . إذا ملكت أنا وحدى
حرصت وغرت وسورت . .

— الملكية إذن هى أساس الحب عندك .

قالتها والتفتت إلى الشاعر :

— وأنت . ما شعورك لو آثرتك بحبى ؟ .

— فقال الشاعر :

— أحس أنك قد طلعت من مشرق « قلبى » لتحلى فى
الدنيا محل تلك الشمس الغاربة . . أحس أنك ضياء حياتى ،
وضياء كل الكائنات . . أشعة عينيك دفء لى ولكل
المخلوقات . . سأدرك أن جمالك لم يخلق لسعادتى وحدى . .
وأنك كهذه الشمس أكبر من أن تملكها يداى بمفردى ، إنما
أنت نعمة للناس ، لن أغار إذا أرسلت نسماتك كالأشعة تملأ
قلوب العباد نوراً ورحمة وسلاماً . . سأسير إلى جانبك مزهواً

فخوراً كلما رمقتك العيون . . لأنى سأعرف أن الجماهير قد
رأت فيك ما أرى ، وأعجبت بما أعجب ، وآمنت بما أومن . .
إن آية الله فى حسنك يجب أن تبلغ للناس كافة . . ما أنت إلا
كتاب مقدس لم ينزل لأتلوه وحدى دون البشر ! . .

— الشيوعية إذن هى أساس الحب عندك ! .

ونظرت إلى الموسيقى :

— وإذا فضلتك أنت ؟ . فماذا تشعر ؟

فقال الموسيقى

— أشعر أن شمس الفن قد أشرقت فى قلبى . . . ولن
يكون لها بعد اليوم غروب . . . فإن الألحان التى ستخرج من
وحيك لن يسمع مثلها بشر . . . إن قيثارة «أورفيوس» التى
قاد بها الضوارى والأنعام ، لن تلحق بقيثارتى التى سأخلب
بها العقول وأستلب الأفهام . . . لن تعرفى موتاً أبداً أيتها
المرأة الآن الخلود هو هديتى إليك . . . أنغامى التى تهبط من
إلهامك كما يهبط الندى من صبح الفجر ستبقى على الدهر ترددها
الأفواه بعد الأفواه

— الفن إذن هو أساس الحب عندك . .

وأطرقت فى شبه يأس . . . وطال إطراقها .

فاستعجلها الجميع فى صبر نافد :

— تكلمى واحكى وانتخبى من بيننا . . .

فقالت :

— لا أريد رجلا يحب الامتلاك أكثر منى ، ولا أحب رجلا يعبد ذاتى أكثر من ذاته . . . ولا أبغى رجلا يهيم بفنه أكثر من شخصى . . .

وأشاحت بوجهها عن الثلاثة ، وطفقت ترسل بصرها إلى الشفق الأحمر المراق على مصرع الشمس عند الأفق . . .

وخيم صمت ، قطعه الصحفى قائلا :

— أرأيتم ؟ . . أما كان خيراً لنا أن نتحدث فى السياسة ؟ .

فوافق الموسيقى بهزة رأسه . . ولكن الشاعر قال :

— وهل تحسبوننا خرجنا عن السياسة ؟ . . يا للمرأة !
إنها مثل الدنيا . . . لا يدرى الإنسان كيف تفهم ، ولا كيف تحكم ؟ . تضاربت فيها المذاهب ، وتناقضت النظريات . . .

من رأسمالية ، إلى شيوعية . إلى فنية . . . إلخ . . . فما اهتدى أحد إلى مفتاحها . . ولا وفق إلى فك عقدها ومعضلاتها . . ولا إلى فتح مغاليقها ولا إلى حل رموزها وأسرارها . . .

فعادت إليهم المرأة بوجهها قائلة :

— لأنها أبسط من ذلك كله لو تعلمون !

امرأة غلبت الشيطان !..

كانت دميمة هذه المرأة لم تعرف ربيع العمر . ولكنها عرفت خريفه وشتاءه . لم يورق لها أمل ، ولكن دموعها هطلت كالمطر ، والفرح تساقط فى قلبها كأوراق الشجر . . . وبرد الحرمان من متع الجسد قد ضرب من حولها نطاقاً ، إنها جزيرة الكآبة فى محيط الكون ، هكذا تعيش وهكذا ستموت . لن يضم خصرها رجل . ولم تعرف شفتاها غير الصلوات لسماء لا تسمع واللعنات على قدر لا يرحم .

وفى ذات ليلة عصفت فيها الرياح الهوج ، وزمجرت الزوابع الثائرة ، لا خارج حجرتها بل داخل نفسها . . . صاحت صيحة اهتزت لها أركان كيانها القبيح :

— أيها الشيطان ، لم يبق إلا أنت !

وأطرقت فى شبه غيبوبة ! .. وإذا الجدران تنشق ويظهر لها الشيطان كما ظهر من قبل للعلامة « فوست »

والشيطان لا يصم أذنيه عن الدعاء . إنه مرهف السمع ، سريع فى تلبيته النداء . قال لها :

— ماذا تريدين أيتها المرأة ؟

— الجمال . . الحياة . . المتعة . .

لفظتها كما يلفظ الظمآن كلمة « الماء » فى تيه الصحراء ، فقال لها الشيطان :

— أتعرفين الثمن ؟ .

— خذ الثمن الذى تريد !

— روحك أذهب بها الى الجحيم ! ذلك عملى فى الأرض ، أسعى لجمع الأرواح أعمر بها مملكتى « جهنم » لنرى اخر الأمر أيهما الظافر بأكبر تعداد : أنا الجالس على عرش النار ؟ أم ذلك الجالس على عرش الفردوس ؟ .

— أعطنى المتعة فى الأرض عشر سنين ثم اذهب بى بعد ذلك إلى حيث شئت . . إن الجحيم لا تخيفنى ، فأنا الآن فى جحيم ! .

— اتفقنا . . لك المتعة عشر سنين وأنت لى بعد ذلك .

وحررا بدم المرأة الصك المعهود .. ووقعت عليه
بامضائها .. ومس الشيطان بيده جسد المرأة فانتفضت ..
وأشار لها بأصبعه إلى مرآة الخزانة . فنظرت فإذا جمال يضئ
منها كأنه شهاب ... إنه جمالها . أهى صاحبة هذا الجسم ؟ ألها
هى هذه الروعة والفتنة والسحر ؟.

وألفت المرأة نفسها فى نبع الحياة تعب ... وغمرت جسدها
فى بحر الملذات يغوص ... وجرفها تيار الأيام إلى السنة
العاشرة ، فطفت على السطح كالقربة ، ارتوت وامتلأت بماء
المتع وانتفخت .

وجاءها الشيطان وفى يده الصك يذكرها بقرب الموعد
فقالت له :

— نعم .. أذكر ولم أنس . ولكن ..

— ولكن ماذا ؟ ..

— هنالك متعة أشعر لها بظمأ

— أهنالك من المتع مالم تذوقيه بعد ؟

— متعة الروح ! ..

— ماذا تقولين ؟ ..

— تلك متعة لابد أن تأذن لى بها .. طبقا للصك ..
ألم تتعهد لى بأن تبلى كل المتع فى عشر سنين .. أمامى
شهران حتى أتم المدة . لقد سئمت المتع الجسدية . بى عطش
شديد للمتع الروحية .. أبلنى متعة الروح أيضاً فى هذين
الشهرين ، وخذ روحى إلى الجحيم .

— لك ما أردت .. إنى كما ترين أمين فى تنفيذ الشروط .

واختفى وترك المرأة .. فقامت لساعتها وخلعت دمالجها
ونبذت بهارجها .. وارتدت الخشن من ثياب النسك ،وذهبت
وأدت فرائض الحج .. وغرقت فى التأملات السامية ..
وانقطعت للأعمال الصالحة ،وأوغلت فى الحياة العليا الطاهرة ،
حتى انصرم الشهران ، وجاء الشيطان ... يطالب بوفاء
العهد .. فإذا هو يرتعد لمرأى المرأة .. ياله من جمال يدثر
كيانها .. ليس هو الجمال المضىء كالشهاب المحرق .. ولكنه
نور عميق لطيف يعرف مصدره العلوى .. فارتاع منه ...
لكنه تجلد وتقدم نحو المرأة قائلا :

— حانت الساعة .. هيا معى إلى الجحيم ! ..

— هلم بنا ...

قالتها المرأة طيّعة مذعنة .. لا مطل فى لهجتها ولا فى نيتها، وسار الشيطان وسارت هى خلفه حتى بلغا باب جهنم .. فلما أحس الزبانية بقدوم ملكهم، فتحوا الأبواب على مصاريعها فدخل ملك النار وأرادت المرأة أن تدخل خلفه .. فما إن وضعت قدميها على العتبة، حتى هبت فى الجحيم ريح تراجعت لها ألسنة اللهب، فدب الذعر فى قلوب الزبانية، ودهش الشيطان وفزع، وصاح وقد ردد صيحته أهل النار :

— ماهذا ؟ ماهذا ؟ .

وهنا امتدت أيدى الملائكة حراس الجنة، فاختطفت المرأة وهى تصيح قائلة للشيطان :

— هذه المرأة لنا ..

فصاح الشيطان :

— بل هى لى .. روحها لى بمقتضى الصك .. انظروا !..

— نحن لا ننظر فى صكوك .. بل ننظر فى أرواح ..

هذا روح من أرواح الجنة ..

— بل من أرواح النار ... لقد دمغ بطابع النار منذ عشر سنين .

ولكن نسيم الجنة دخل فيه منذ شهرين . هذا النسيم الذى ترونه كريح صرصر لا تطيقها نيرانكم .. ولا يقف فى وجهها لهبكم ..

— لقد خدعتنى إذن هذه المرأة !

وعندئذ صاحت المرأة وهى فى أيدى الملائكة :

— لم أخدعك ... إنى وفية بعهدى ... خذنى إلى الجحيم .. دعونى أيها الملائكة أذهب إلى الجحيم .. هكذا وعدت ... ومن الفضيلة أن أبر بوعدى ولا أنكث عهدى ولو مع الشيطان ! ..

فقال الشيطان :

— أسمعتم ؟ إنها لى .. دعوها تلحق بى ! .

فجذبها الملائكة إلى الجنة وهم يقولون :

— لو تنكرتْ لك الساعة وتنصلت لدفعنا بها إليك ..

— ياله من منطق... إنها تصيح بكم معترفة أنها لى ،
فيكون هذا حجة علىّ ودليلا ضدى ؟! لقد أقرت بالصك.
أقرت بأن روحها لى...

— نعم روحها الأول... ولكن أين الآن روحها
الأول ؟ لقد أعطتك روحها الأول .. فابحث عنه ..
أما روحها هذا فهو لنا.. هلى بنا أيتها المرأة الطاهرة ..

فتوسلت المرأة قائلة :

— إنها جريمة أن أنكص عن الوفاء... دعونى
بربكم أذهب اليه وأكفر عن ذنوبى الأولى...

فقالت الملائكة :

— ليس لك ذنوب أولى... لقد ذابت فى نور طهرك
الأخير.

— إذن لاتعرضونى لذنب جديد : هذا المطل اصك
واجب الوفاء.

— لا شأن لك بهذا الأمر!.. هلى بنا... هلى بنا.

فصاح الشيطان :

— ياللعجب!.. امرأة فاضلة تريد الحرص على شرف
كلمتها، فتأبون أنتم إلا تحريضها على سفالة الخلق!..

فقالت الملائكة :

— أتعترف بأنها امرأة فاضلة! إذن أين تذهب
الفاضلات من النساء؟ إلى النار أو إلى الجنة؟

وهنا ضاق الشيطان بالجميع ذرعاً، فقال :

— تباً لكم.. تباً لكم . خذوها وخلصونى
أليست روح امرأة!.. إنها ليست أكثر من امرأة..
فلتذهب إلى.. إلى الجحيم.. أقصد إلى الجنة... ولكنى
لن أنسى أنها خدعتنى.. خدعتنى يوم سمت «الفضيلة»
متعة!..

الحبيب المجهول !..

من هو ؟! لم أكن أدرى . . . أين هو ؟ وهل كنت أدرى ؟ مصيبتى هى جهلى به . . ولو أنى كشفت عن حقيقته فى الوقت المناسب لما كان قد حدث لى الذى حدث !.

القصة بسيطة تقع لكل إنسان فى كل حين : سيارة يقودها صديق ، يمر بك فى الطريق ، فيقف ويدعوك متفضلاً إلى الركوب ، ليوصلك إلى حيث تريد ، ماذا فى هذا من غريب أو مريب ؟ لا شىء بالتأكيد ، وهذا ما وقع لى بالضبط :

كنت أسير ذات عصر فى طريق إلى منزلى ، أمشى الهوينى بمفردى ، أتأمل الأشياء حولى فى رضا ، فالسير على الأقدام متعة وفائدة . . وإذا سيارة فخمة تقف على مقربة منى ، ويطل منها صديق يشير إلىّ ويدعونى أن أركب ، فأردت الاعتذار إيثاراً لرياضة المشى ، فألح وأصر ، وفتح باب السيارة ونزل ليأخذ بيدى ويجلسنى فى مقعده . فلما دنوت ، ونظرت ،

بهت ذلك أن السائق كان غادة لم تقع عينى على أجمل منها . وكان المقعد الذى دعيت إلى الجلوس فيه إلى جوارها ، فلم أر من سلامة الذوق أن أتراجع ، بل إنى لم أفطن إلى نفسى إلا وأنا راكب ، والسيارة تنهب بنا الأرض ، والصديق فى المقعد الخلفى يسألنى عن وجهتى ، وأنا لا أدرى بماذا أجبت . هنالك نوع من الجمال يعمى البصيرة ، كما يعمى مصباح السيارة البصر ، فلا بد من وقت تفرك فيه عينيك لترى ، ولا بد من فترة تسترجع فيها فطنتك لتدرك ، وعندما مرت الفترة ذهبت السكرة . كان منزلى قد اختفى شبحه وراءنا وزال أثره فأفقت صائحاً فيهما :

— بيتى . بيتى !

فأوقفت السائقة الجميلة السيارة فى الحال ، وأرادت أن تدور بها فى الشارع لتعود بنا أدراجها . وإذا سيارة أخرى كانت آتية من خلف قد اعترضتنا . ووقفت ، ونزل منها رجل يتفجر غضباً ، وأقبل نحونا مسرعاً ، ورأيته قدنا منى ، وأمسك بمقبض الباب ليفتحه عنوة ، وخيل إلىّ من شرر عينيه أنه يريد بى شراً ، وهنا سمعت صديقى الجالس خلفى يلفظ صيحة :

— ضبطك ! . انطلق بالسيارة إلى آخر سرعة !

وإذا بالغادة ، وقد لمحت وجهها قد امتقع ، وأمسى حتى في شحوبه جميلاً ، كالوردة البيضاء المشربة بالصفرة ـ قد اندفعت بالسيارة ، فإذا هي تسابق الريح ، تاركة الرجل ، وقد تنحى عن طريقها خشية أن يصدم أو يداس . .

مرقت سيارتنا كالسهم في طريق الجيزة . . ولكن الجميلة نظرت في مرآة السيارة العاكسة وصاحت :

— إنه يتبعنا . .

وضاعفت سرعتها ، فنظرت خلفي فإذا سيارة الرجل منطلقة خلفنا حقيقة بسرعة زائدة ، فقلت للراكبين معي

— ما الذي حصل ؟ .

فارتبكت المرأة ، وتردد صديقي قليلا ، ثم قال :

— يظهر أننا ونحن ندور بالسيارة قد ارتكبنا مخالفة !

فصدقت ، وسكت ، واجتازت السيارة الجيزة ، واندفعت في طريق الهرم . . ونظرت الحسناء في المرآة العاكسة وصاحت :

— إنه أخذ يقترب منا .

فصاح بها صديقي :

— ضاعفي السرعة . . أسرعي . . أسرعي . . إذا لحق بنا فقد هلكنا . .

فأسرعت الجميلة ! ونظرت خلفي فإذا الرجل يسرع في أثرنا هو الآخر . . فلم أتمالك وقلت :

— عجباً ! ماذا يريد منا هذا الرجل ؟ . لو كنا صادمناه على الأقل أو ألحقنا به ضرراً ظاهراً لكان له بعض العذر ، ولكن مخالفة بسيطة يطاردنا من أجلها هذه المطاردة ويرغمنا على هذه السرعة الخطرة . . ويعكر علينا صفونا . . ويكدر مزاجنا . . لعنة الله على هذا السخيف ! .

فخيل إلى أن صديقي يقول في نبرة مرتجفة :

— حقاً إنه سخيف .

وكنت قد أغرقت في شرود وسهو ، ولم أفكر إلا في هذه المجازفة بأرواحنا بهذا الإسراع المهلك بغير ضرورة ، وقلت في نفسي : أيبلغ بنا الجبن إلى هذا الحد ؟ . فلا يخطر في بالنا

أن نواجه الرجل ونناقشه بالحسنى . فربما اقتنع بالمعروف .

وصارحتهما بهذه الفكرة ، فابتسما ولم يحيرا جوابا .

وأمعنا فى الصمت والقلق ، كما أمعنت السيارة فى ذلك السباق المخيف ، وكانت سيارة الرجل المطارد فى تلك اللحظة قد أوشكت على اللحاق بنا . . فصاح صديق بالحسناء :

ـــ خير حل أن تعرجى بسرعة يساراً وتأخذى طريق العودة ، وهو ما لم يفكر فى أننا سنفعله ، وبذلك يتعذر عليه أن يلحق بنا .

وأدارت الجميلة عجلة القيادة فجأة فتحولت السيارة يساراً وما كادت تمرق فى طريق العودة ، حتى وجدنا سيارة الرجل المطارد ، قد عرجت هى الأخرى يساراً ، لا من الممر المعد لذلك بل مقتحمة الرصيف . . واعترضتنا وسدت علينا الطريق . . وعندئذ بادر صديق صارخاً بالسائقة :

ـــ اقتحمى الرصيف أنت أيضاً خلفه وامرقى سريعاً .

وهنا نفد صبرى ، ففتحت باب السيارة قائلا :

ـــ هذه تصرفات أطفال . أنزلونى وأنا أتفاهم مع

هذا الرجل .

فصاحا بى ، وهما يجذبان كمى :

ـــ تتفاهم ؟ مستحيل . مستحيل . . الزم مكانك . إننا سننطلق . لا بد من الهرب .

فأنقذت ذراعى منهما ونزلت وأنا أقول لهما :

ـــ إذا أردتما العبث فأنا لست فى سن العبث . . ولا يليق بى هذا الكر والفر . . اذهبا أنتما واتركانى أحادث الرجل فى أمر هذه المخالفة البسيطة وأسوى الموضوع معه باللطف واللين . . .

وكان الرجل قد نزل من سيارته ، وأقبل يشتد نحوى . . فلما رأت السائقة الجميلة وصديق ذلك لاذا بالفرار . . واخترقا بالسيارة الرصيف والرجل يشيعها ببصره ، حتى اختفت عن الأنظار . . فاستأنف سيره نحوى ، إلى أن بلغنى فابتدرنى قائلا :

ـــ وقعت فى يدى أخيراً يا مجرم !

فنظرت إليه بعتاب ، وقلت بتسامح وهدوء :

ـــ مجرم ؟ وأنا لست سائق السيارة ؟ . ولم أسق قط

سيارة فى حياتى . . ولا أعرف كيف تسير ولا كيف تدار !

— طبعاً . هى التى كانت تسوق وتقود ، وكنت أنت بجوارها تنظر فى عيونها السود .

— آه . . لا تذكرنى بعيونها . إنى والله من بهرتى لم أدر ما لون عيونها !! أسود هى أم رمادية أم عسلية ؟ وإنى لمندهش لرجل مهذب مثلك كله ذوق ونظر كيف يتصرف هكذا مع فاتنة كهذه ! هبها ياسيدى خالفت وأخطأت . ألا يحسن بك أنت أن تتسامح وتتساهل ؟ .

— أتساهل ياسافل ! . من تحسبنى حتى أتساهل فى هذه الأمور ؟ ولكنى سأريك أن الذى أمامك هو رجل . .

وأخرج فى الحال من جيبه مسدساً صغيراً . ما إن لمحته فى يده حتى هرب دمى ، ولكنى تجلدت ، واعتصمت بالهدوء . . وتكلفت الابتسام ، وقلت ملاطفاً :

— اللهم عفوك ورضاك . . أتريد قتلى ياسيدى لمسألة بسيطة كهذه ؟

— بسيطة ! . بسيطة ياوغد؟ تسمى هذه المسألة بسيطة !

— أقصد . . وأنت الصادق . . أنها لا تحتاج إلى غضبك هذا كله . . إنها مما يقع فى كل يوم . . . خصوصاً من سيدة جميلة كهذه يغتفر لها كل شىء . . .

— يغتفر لها كل شىء إلا سوء سيرها !

— سيرها والله كان بمنتهى الحذر ، لولا ظهورك أنت المفاجىء . ولعل هذا هو الذى أوقعها فى الارتباك . . .

— طبعاً ظهورى المفاجىء لابد أن يربككما ، ويوقعكما فى الحرج والضيق !

— أكثر من ذلك ياسيدى ، وأنت الصادق ، لقد حلت بيننا وبين المتعة بتلك النزهة اللطيفة . ولو كنت تكرمت علينا وتفضلت فأغضيت عن الموضوع ومررت مر الكرام ، وتركتنا نواصل سيرنا ونزهتنا ومتعتنا ، لكنت ظفرت منا بألسنة تلهج بشكرك ، والدعاء لك ، والثناء عليك ! . . .

— ماشاء الله ! . . . إنى لم أر فى حياتى أصفق منك وجهاً . إنى أقسم أن فى استطاعتى الآن أن أريق دمك برصاصة وأنا مرتاح الضمير . . .

ولمعت عيناه بأشعة أرعبتنى . فتوسلت إليه أن يبعد
المسدس عنى ، وجعلت أستعطفه وأقول له :

ـــ مهلا ياسيدى مهلا . . . هدىء أعصابك الثائرة . مهما
يكن من أمر ، فماذنبى فى الموضوع ؟ . ولماذا تحملنى أنا مسئولية
الحادث ، وما أنا فى الواقع غير واسطة خير . . . نزلت كى
أتفاهم معك ، وأزيل من نفسك كل أثر سىء .

ـــ عجباً ! . وهل تصورت أنى أقبل أن تكون أنت
واسطة خير ورسول صلح بينى وبينها ! ؟ .

ـــ وما المانع ؟

ـــ أنت الذى تصلح بينى وبين شريكتك ؟ . وهل أرضى
هذا الوضع ؟ وهل هذا معقول يا . . . يا بارد ! . .

ـــ كنت أحسبه تصرفاً سليماً ! . .

ـــ هذا تصرف فى منتهى الجرأة والوقاحة ! . .

ـــ لاحول ولاقوة إلا بالله ! . أعترف بأنى عجزت عن
إرضائك . . وفقدت الأمل فى فهمك أوفهم ما تريد . . .
فاقتلنى إذا شئت . ولكنى أرجو منك وأنا ألفظ الروح أن

تفهمنى على الأقل : لماذا أنا مت ؟ لو أنى تسببت ، لا سمح
الله ، فى خرق ، فردة كوتش ، لكان هذا سبباً معقولا لقتلى ،
ولكن أموت يا ناس من أجل مسألة تافهة ! .

ـــ تافهة . . يانذل ! . . فى أى عصر نعيش حتى نرى
هذا التبجح الغريب ، والاستهانة بهذا الجرم الخطير ! .

ـــ بل فى أى عصر نعيش ياسيدى حتى نرى نفساً حرم
الله قتلها تذهب فى مخالفة ، الحكم فيها لايزيد عن ١٥ قرشاً ؟

ـــ مخالفة ؟ هذه جناية . .

ـــ أؤكد لك أنها مخالفة . إنى رجل أعرف القانون . .

ـــ اخرس . . . أنت رجل مستهتر .

ـــ وأنت رجل متشدد زيادة عن اللزوم .

ـــ باللصفاقة ! . ألا تريد منى أن أتشدد دفاعاً عن
حقوقى الشرعية !

ـــ حقوقك ياسيدى محفوظة . . ولو كان حصل لك
أو حصل لها أى ضرر . . .

ـــ ألم يحصل لى ضرر ؟ . ألا تريد أيضاً أن ترى الضرر

الذى لحقنى ؟! .

ـــ لا أقصد ذلك ياسيدى . . وأنا معترف أن حكمى فى هذا لايعتمد عليه ، وأنا مستعد لإجراء معاينة أوفحص بمعرفة خبير يكشف عليها .

ـــ يكشف عليها ! . اخرس يابذىء .

ـــ أنا والله لم أعد أدرى كيف أرضيك ؟

ـــ لا يرضينى شىء سوى قتلك والشرب من دمك . وغسل عارى بهذا الدم النجس ! .

ـــ لماذا ياسيدى المحترم ؟ ماذا صنعت فى دنياى حتى أستحق هذا ؟

ـــ هذا هو الجزاء الوحيد لذلك الأثيم الذى يعتدى على أعراض الأسر !

ـــ أعراض الأسر ؟ . . وما دخل أعراض الأسر فيما نحن فيه ؟ . .

ـــ وبماذا تصف علاقتك الشائنة بزوجتى . ؟

ـــ زوجتك ؟ . وهل حصل لى الشرف بمعرفة زوجتك ؟!

ـــ ألا تعرفها ؟ .

ـــ ولم أرها فى حياتى . وأقسم لك . . .

ـــ ومن عشيقتك إذن ؟ .

ـــ عشيقتى ؟ . لا ياسيدى الفاضل . . لاتجرح شعورى ، أنا رجل مستقيم . لا صلة لى بامرأة ، ولم أعرف امرأة . . .

ـــ والتى كانت إلى جوارك فى السيارة . . أهى امرأة . . أم . . ؟

ـــ آه . لك حق . . ولكن القصة على وجهها الصحيح هى أنى كنت أسير فى طريقى إلى منزلى ، كما يحدث لكل إنسان . . . وإذا سيارة تقف على مقربة منى . . فأصعد . . وإذا بجوارى امرأة . .

ـــ كما يحدث فى كل «أتوبيس» !

ـــ بالضبط . . .

ـــ وهل تعرف هذه المرأة ؟

ـــ أبداً .

ـــ والتقطتك هكذا من الطريق بدون سابق معرفة ؟ .

— هذا والله الذى حصل .

— ذلك شىء مشرف جدا لهذه المرأة أن تصبح هكذا كالسيارة العامة تلم من الشوارع من تعرف ومن لا تعرف .

— لا تظلمها ياسيدى . . . الموضوع له أصل .

وهممت أن أقص عليه حقيقة ما حدث بالصراحة والصدق والتفصيل ، ولكنى توقفت فى الحال ، وأدركت أن ذلك مستحيل . . إذ لابد دون ذلك من أذكر له وجود صديقى الذى دعانى والزوج من غير شك لا يلمحه ، لأن هذا الصديق كان فى المقعد الخلفى من السيارة المغلقة . ولم يكن التفات الزوج موجهاً إلا للجالس بجوار زوجته فى مقعد القيادة ، وهو أنا ولا فخر . فافشاء أمر صديق المجهول ، لن يغير من الموقف كثيراً . فالزوجة متهمة فى الحالين . ومن يدرينى أن الزوج سيصدقنى إذا حاولت نقل عبء الجريمة من كاهلى إلى كاهل آخر لم يره ولن أخرج من المحاولة إلا بخسة النذالة والجبن والاغتياب والنميمة . ثم إنى قد « لبخت » فى أول حديثى ، ونوهت بعيون « الزوجة » وفتنتها وموقع سحرها من نفسى ، ومتعة

النزهة معها التى عكر صفوها الزوج بظهوره . . . أنا إذن متلبس بالتهمة لاذانى بأقوالى وأفعالى . . . ولا توجد قوة ولا حجة فى مقدورها تبرئتى . ولا فائدة فى إنكار ولا جدوى فى دفاع . فلأسلم الأمر لله . وليعتقد الرجل ما يعتقد وليكن ما يكون .

ورأى الزوج صمتى وإطراقى ، فاستحثنى قائلا :

— تكلم . . . ماذا فى استطاعتك أن تقول ؟ بماذا تعلل وجودك إلى جوار زوجتى فى السيارة ؟ وبماذا تبرر هروبكما منى ، وأنا أتبعكما من مصر إلى الجيزة ، إلى الهرم ؟

فلم أجد فى رأسى رداً نافعاً ... فلا الحقيقة تصلح أن تقال ، ولا الصدق ينجح فى مثل هذه الحال . فاكتفيت بأن قلت :

— عقدة العقد ياسيدى هى فى إيجاد هذا التعليل المقنع .

— اعترفت إذن . ومادمنا وصلنا الى هذه النتيجة ، فلا بد من تصفية الموقف الآن بكل عقل وحكمة وهدوء ، كما يليق برجلين مهذبين . . أجبنى أولا بكل صراحة ، أنت تحبها طبعاً ؟

فلم أر داعياً للاهتمام بالجواب الصحيح ، فالمسألة بلغت

حداً أصبح فيه الكذب مساويا للصدق، وربما كانت الأكاذيب
فى هذا الظرف أقرب الى التصديق من الحقيقة . ومادمنا لم
نعد نستطيع قول الحقيقة فلنجرب الكذب، فقد ينجينا من
هذا الحرج الذى لامخرج منه . فقلت له :

ـــ تسألنى هل أحبها ؟ أحبها بجنون ولا أنام الليالى .

ـــ وهى تحبك طبعا ؟ .

ـــ حب العبادة ولاتنام الليل .

فكظم غيظه ، وتكلف الهدوء ، وقال :

ـــ ومنذ متى يعرف أحدكما الآخر ؟

ـــ منذ نصف ساعة !

فحملق فى وجهى وقال :

ـــ ماهذا الخلط ؟ أهذا معقول ؟ . أجبنى بصراحة
قلت لك !

ـــ إنى أجيبك بما أرى . . فاستخرج أنت الصحيح من
الزائف .

ـــ إجابتك الأخيرة ظاهرة الكذب . . . فقل الحقيقة

من فضلك .

ـــ تلك هى الكذبة الوحيدة فى كل ما أجبت به . .
اغتفرها لى .

ـــ مما لا شك فيه أن معرفتكما لابد أن تكون قديمة .

ـــ فلأقل الصدق إذن : حقاً إننا تقابلنا وتعرفنا منذ
عام ، وكانت العلاقات بيننا دائماً طول هذه المدة على مايرام .

ـــ عظيم جداً . . اسمع الآن ما استقر عليه عزمى : إنى
سأطلقها وعليك أنت أن تتزوجها . . ولا تأمل أن يكون
للمسألة حل آخر غير هذا .

فبلعت ريقى ، وكتمت ما بى ، وتكلفت الابتسام ،
وأظهرت الرضا . . . ذلك أن المهم فيما أنا فيه هو الخروج من
اللحظة الحاضرة والخلاص من المأزق الحالى . . وإلى أن
أعود إلى دارى قد يأتى الله بالفرج . وإلى أن أمثل بين يدى
المأذون لعقد ذلك الزواج ، أكون قد قابلت صديقى وصفعته
وأقنعته أن يحل محلى وأن يخلى سبيلى . .

واتفقنا على ذلك أنا والزوج . . . وتصالحنا وأركبنى

سيارته ، وأوصلنى الى بيتى ، الذى لم يقدر لى أن أصل اليه فى سيارة زوجته . . . وانتظرت . . . وهأنذا أنتظر إلى اليوم . . . فلا الزوج قد ظهر ، ولا الزوجة، ولا الصديق . . . ولا طلاق حصل ، ولا زواج طلبونى إليه : أين اختفى عنى أبطال تلك القصة ؟ . وماذا تم فى أمرهم ؟ وما علاقة بعضهم ببعض الآن ؟ أسرار لا أدرى عنها شيئا . ولا أريد أن أدرى . . كل ما أعرف هو أنى صرت أجفل وأرتعد من كل سيارة تقف بقربى وتقودها امرأة . . .

فى نخب "العصابة"!..

اهتزت الدنيا لخبر أذاعه البرق فى كل مكان :

علماء الذرة قد اختفوا فجأة من أمريكا ، ولا يدرى أحد مقرهم ولا مصيرهم . . .

وعلقت الصحف على ذلك الاختفاء الغريب بقولها : إنه ولا ريب اختطاف قامت به جماعة من الجواسيس لحساب بعض الدول ، ولكن الحقيقة التى وقعت لا يمكن أن تخطر على بال صحافة ولا خيال صحفيين ! . . . فقد حدث الأمر على هذا الوضع :

رجل مستقر فى بهوه الفاخر قرب المدفأة قرأ فى جرائد المساء هذا الخبر : «صرح رئيس اتحاد العلماء الذريين الأمريكى بأن الأبحاث الجديدة فى شئون الذرة ستتيح بعد عام صنع قنبلة تفوق فى قوة التدمير القنبلتين الذريتين اللتين ألقيتا على هيروشيما وناجازاكى بمقدار ألف مرة . . .»

فألق الرجل بالصحيفة ، ونهض وقد دبر فى نفسه أمراً ...

هذا الرجل لم يكن سوى «آل كابونى» رئيس العصابة الخطير ، وصاحب الملايين الشهير !

كان قد اعتزل العمل الحرام ، وقد حذره الأطباء من داء القلب ، وشعر بدنو الأجل ... ولكن موهبة التنظيم والتدبير لم تزل منها فى عقله بقية .. ونفوذه على مهرة القتلة والمهربين وحذاق اللصوص والخطافين لم يزل له قوة ... فبذل من المال والحيلة ما لا يقف فى سبيلهما شىء .. حتى ظفر بخطف اتحاد العلماء الذريين الأمريكيين برئيسهم .. ووضعهم فى قصره الفخم فى «فلوريدا» ... ودعاهم إلى مائدته .. وقدم إليهم أطيب الطعام وأفخم الشراب ... ثم قام فى آخر العشاء يرفع كأسه قائلا :

— فى نخب «العصابة» ... عفواً أقصد «الاتحاد» !

ونظر إليه رئيس اتحاد العلماء قلقاً .. وهو لا يدرى أكان هذا الخطأ منه مقصوداً ؟! .. أترى هذا الرجل يسخر

منهم أم يحتفى بهم ؟! ...

ولم يمهلهم «آل كابونى» ، فقد مضى يقول :

— لقد دعوتكم إلى قصرى لأكرمكم ... ومن أحق منكم اليوم بالتكريم منى ؟! أرجو قبل كل شىء أن تغتفروا الطريقة التى أحضرتكم بها .. لقد خشيت أن أرسل إليكم بطاقات دعوة ، وأكتفى بها ، فلا تعنوا بتشريفى ... ترفعاً أو استغراباً أو رهبة أو أنفة ... فأنتم ولا شك تعتقدون ألا صلة تربط مثلى بمثلكم ، ولا تشابه بين مهنتى ومهنتكم ، ولا تجانس بين مشاعرى ومشاعركم ... ربما كان هذا صحيحاً لأول وهلة ... وإنى لست من الوقاحة حتى أزعم لنفسى الحق أن أقف بين جماعة من أبطال ... استطاعوا فى طرفة عين أن يقتلوا مئات الآلاف من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال

ما من أحد يكبر عملكم مثل ما أكبره .. وما من أحد يقدر جهدكم مثل ما أقدره . كلما تذكرت أن كل مجدى قائم على عدد من الرجال ، والرجال فقط ، قتلتهم فى شيكاغو أنا وأعوانى ... عدد لا يزيد على خمسمائة رجل ! ... وأنا كل

شهرتى قائمة على تلك المجزرة التى أبدت فيها كل خصومى عام
١٩٢٩ فى جراج يوم سانت فالنتين ! لقد كان أعوانى
كثيرين ... أكثر منكم عدداً ... ولكننا لم نستطع أن نفعل
أكثر من ذلك ... أما أنتم فقد استطعتم ان تبيدوا خمسين
ألف نسمة دفعة واحدة ، اعذرونا ... لقد كانت وسائلنا أولية
محدودة ... كل ما فى أيدينا كانت المسدسات والمترليوزات ،
وهل يخطر فى بالنا أن المستقبل سيكشف عن رجال مثلكم .
فى أيديهم هذه القدرة ، وفى قلوبهم هذه الجرأة ؟ ... إنى
اخاطبكم وفى نفسى شعور من الخجل والمذلة والضآلة ...
فكل عملنا بالقياس إليكم عبث صبية ولعب صغار .. وقد
منحونى من أجله لقب « عدو الشعب رقم واحد » ولست
أدرى ماهو اللقب الذى يليق برئيس هذه الجماعة ..
أعنى الاتحاد ؟ ! . أحمد الله أن زماننا قد فات .. وبطولتنا
المزعومة قد طويت فى بطون الصحف القديمة ، أما اليوم فهو
يومكم .. وهذا الزمان هو زمانكم .. ولكل زمن رجاله !.
فاسمحوا لى بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن جماعتى أن أحيى

جماعتكم ، وأن أرفع كأسى فى نخب مجدكم .. ليحيي الرجال
الجدد ! .. لتحيي العصابة الجديدة .. أعنى الاتحاد الجديد ..

وشرب « آل كابونى » قدحه فى جرعة واحدة .. وجلس
بأدب وتواضع ... وقد أرخى أهدابه .. ونظر إلى الأرض
فلم يبصر رؤوس ضيوفه المطرقة .. ولا عرقهم المتفصد من
الجباه ، ولا خجلهم المتصبب قانياً من الوجوه ..

وخيم سكون .. قطعه آخر الأمر رئيس الاتحاد
بنهوضه .. فنهض معه كل الأعضاء ... وانتهت الوليمة صامتة
كأنها جنازة ...

وانصرف العلماء إلى منازلهم ... واجمين ، لا يجرؤ
أحدهم على النظر إلى الآخر ... واقترح الرئيس فى النهاية ان
يبقى أمر هذه الوليمة سراً ...

ولم ينم « آل كابونى » فى تلك الليلة ... فقد كان تأثره
شديداً ، لقد أيقن أن آخرته قد دنت ، وأن صفحة حياته قد
طويت .. وأنه قد ختمها كما ينبغى لها من الروعة ، وأنه أسلم
الصولجان ، ولفظ فى خلفاء خطبة الوداع ، على أحسن

ما ينبغى وأجمل ما يشتهى .. لحق له الرقاد الأخير !.

وأصابته فى آخر الليل نوبة قلبية .. وأسلم الروح ..

وظهرت الصحف فى اليوم التالى،وكان القدر هو الآخر أراد أن يتكلم على طريقته، أو يمزح أو يجد .. لا أحد يدرى مراميه !.

كل ماحدث هو أن صورة «آل كابونى» نشرت مصادفة بجوار صورة «رئيس الاتحاد»

الأول بمناسبة وفاته ...

والثانى بمناسبة عودته، بعد اختفائه هو وأعوانه، من «مهمة سرية فنية»!..

أسعد زوجين !..

جلس يصغى بانتباه إلى جهاز الراديو وقد تصاعد منه صوت ناعم بديع :

«يوضع اللحم فى البرام .. ثم يغطى بالبطاطس .. وتفرى بصلة فرياً ناعماً جداً .. وتحمر فى السمن حتى يحمر لونها، فيضاف الدقيق ويقلب حتى يصبح ذا لون بنى فاتح .. ثم تزاح الصلصلة من على النار، وتضاف مع البقدونس والملح والفلفل والبهار ..»

إلى آخر ماجاء فى برنامج التدبير المنزلى ذلك اليوم .. وكان ذلك المستمع الكريم يسمع بقلب يخفق هياماً، وفؤاد يطير شوقاً، ولعاب يسيل حناناً .. وبرح به الغرام . والأذن تعشق قبل العين أحياناً .. فلم يطق صبراً .. وقام إلى أهله يعلن إليهم :

— لابد لى من الزواج بهذه المرأة .

فسألوه :

ـــ هل تعرفها ؟ .

ـــ لا أعرف إلا إذاعتها اللذيذة فى الراديو . . إنها تهز قلبى . .

وكان صاحبنا هذا من أولئك الذين يخلطون بين القلب والمعدة ، فإذا سأله طبيب يوماً : أين معدتك ؟ . أشار إلى قلبه . . وإذا سأله : أين قلبك ؟ . أشار إلى معدته . . وكان لابد للمرأة التى تريد استلاب قلبه من أن تستولى على المعدة أولا . . فإذا ملكتها ملكت كل شىء .

وتمت مراسم القران ، وجاءت ليلة الزفاف . . وأحييت الحفلة إحدى المطربات ، جعلت تغنى طول الليل : « إحنا الاثنين والعين فى العين ، أهنا قلبين وأسعد عريسين . . . » والعريس يتململ فى مقعده ضجراً من هذا الغناء ، ويود الكلام فى موضوع أعز عليه وألذ من هذا الهراء . . وضاق صدره آخر الأمر ولم يحتمل . . فانحنى على عروسه وقال لها باهتمام :

حدثينى . . بعد أن وضعت اللحم فى البرام . . لقد قلت إنه يجب أن تفرى البصلة فرياً ناعماً جداً وتحمر فى السمن . . ماقولك لو أضفنا مع البصل شيئاً من الثوم والكزبرة والكمون . . . ؟ ؟ .

فنظرت إليه العروس طويلا ولم تجب . . .

ومرت الأيام الأولى من أيام الزوجية . . والعريس يتقلب على الشوق ويتقلى . . منتظراً اليوم الذى تدخل فيه زوجته المطبخ ، وتلبس فوطتها ، وتشمر عن ساعديها ، وتطبخ له تلك الأصناف الشهية التى طالما شنفت أسماعه بوصفها اللذيذ فى الراديو . .

ودخلت الزوجة المطبخ أخيراً . وزوجها يباركها . . ويسأل الله أن يحميها . . وعاد من عمله فى الظهر وهو يتلمظ ويقول : « صلوات الله على تلك التى ستسعدنى بالأكلة المثالية ، والطبخة النموذجية . . . »

وانتظر ساعة ثم ساعة . . ثم كاد العصر يؤذن . . فخرجت الزوجة النشيطة من المطبخ والعرق والهباب يسيلان معاً من

وجهها ، وهى ملبوخة من رأسها إلى قدمها . . وقالت له :

— لا مؤاخذة ! . أنا استسهلت . خوفا من التأخير ، وعملت لك طبق بيض مقلى . . .

فأخفى الزوج حسرته وكتم غضبه ومد يده صامتاً إلى طبق البيض المقلى . . . كما قالت . . فوجد سمنه قد تبخر ، وبياضه قد احترق ،وصفاره قد تحجر . .

ودقت الساعة الرابعة . . . فبادرت الزوجة إلى ثياب الخروج فارتدتها وانطلقت مسرعة كأنها على موعد هام . .

وما وافت الخامسة والربع حتى سمع الزوج المسكين صوت امرأته المجنون يتصاعد من الراديو ، ويذيع على المستمعين المصدقين :

« يوضع اللحم فى البرام . . ثم يغطى بالبطاطس . . وتفرى بصلة فرياً ناعماً جداً وتحمر فى السمن . . . الخ »

وطرق الزوج ملياً . . ولم يعد يدرى ماذا يفعل :

هل يضحك ؟ . . . هل يبكى ؟ . .

اعترف القاتل !..

كان موقف ذلك المتهم عجيباً أمام قضاته ! ذلك الشاب النحيل الجسم ، الشاحب الوجه ، الهادىء الطبع ، الباسم الثغر . . . أهو قاتل فى قفص اتهام ؟ أم شاعر فى خميلة ريحان ؟!

كان يشرف من مكانه على قاعة الجلسة ، كأنه مؤلف يشرف من مقصورته على رواية من تأليفه . كل شىء يجرى أمامه فى المجرى الذى تخيله ودبره . . وكل شىء سيحدث طبقاً لما ارتضاه وتوقعه . . . لم تكن فى نظراته حيرة المتطلع إلى الغيب ، ولم يكن فى قلبه قلق المترقب لصوت القدر . . . كأنما يعرف انه هو الذى نسج غيبه ، وصنع قدره . .

كانت المحكمة غاصة بالحضور ، وسياج الشرطة يدفع عن الأبواب أمواج الجماهير . . . فتلك جريمة اهتمت لها البلاد واهتزت الدوائر السياسية . .

وقف النائب العام يطلب رأس المتهم قائلا :

« مهمتى هينة ياحضرات القضـــــاة ! فالمتهم الذى بين أيديكم معترف بجريمته ، وقد دبرها بدقة ونفذها باحكام فقد قتل عمداً مع سبق الاصرار والترصد . المجنى عليه ، ذلك القطب السياسى المشهور ، بأن أطلق عليه رصاص مسدسه ، وهو فى الطائرة بين الإسكندرية والقاهرة فأصابه فى صدره الإصابة الموضحة فى تقرير الطبيب الشرعى ، والمؤدية إلى وفاته . . . وتتلخص وقائع الجريمة كما شهد بها ضابط اللاسلكى فى الطائرة ، فى انه فى ذلك اليوم لم يكن بها غير راكبين : هما المجنى عليه والمتهم . . وقد لاحظ ضابط اللاسلكى كما لاحظ قائد الطائرة بعض آثار الاضطراب على المهم وهو يهم بركوبها ، ولكنهما لم يعلقا على هذه الملاحظة اهتماماً ، إلى أن حلقت الطائرة وطارت حتى كادت تقترب من القاهرة ، وإذا بضابط اللاسلكى يحس حركة خلفه . وكان الباب الموصل بين مكان الركاب ومكان القيادة مفتوحا . فالتفت . . . فأبصر المجنى عليه يخر من مقعده . والجانى أمامه والمسدس

فى يده ، فهرع إليه وانتزع منه آلة الجريمة ووضعه تحت الحفظ . . وقد سئل الجانى فاعترف بالقتل العمد . . وقـــد ظهر من التحقيق أن الجانى ، وهو مدرس فى إحدى المدارس الحرة بالإسكندرية ، كان كثير التردد على القاهرة . . . وأنه ـــ كما شهد ناظر مدرسته ـــ فى حالة مالية مرتبكة ، وأنه كثير العزلة ، محاط بالغموض . وشهد زملاؤه أنه يكثر من الكتابة خفية فى أوقات فراغه إلى جهة مجهولة . . . وطالما رأوا على وجهه علامات الاهتمام والتفكير إلى حد الانفعال ، وهو يتلقى أو يقرأ خطابات كثيرة ترد إليه لا يعلمون مصدرها . . . وكانوا يشعرون كأن المتهم غريب بينهم . . فهو قليل الكلام معهم ، بعيد عن مجالس مرحهم ولهوهم . لم يروه مرة ضاحكا ولا عابثاً . . كان دائم التفكير فى أمر لا يدركون كنهه . وكان يبدو عليه أنه يتحاشاهم ويتجنب عشرتهم . وفى يوم الحادث شهد زملاؤه المدرسون أنه تلقى برقية . . . فتغير وجهه بعد تلاوتها ، وسأل عن الساعة . وقال وهو مسرع مضطرب : إنه ذاهب إلى المطار ليركب الطائرة إلى القاهرة . . . وقد أبصروه

فى تلك اللحظة يخرج مسدساً من ثيابه ، فحصه ثم رده إلى
جيبه . كل هذه الوقائع أثبتها التحقيق وأقرها المتهم .. نعم ..
المتهم معترف بما اقترفت يداه .. ولكن السؤال الحائر على
كل الشفاه : هل له شركاء ؟ . لم يستطع التحقيق ، للأسف ،
أن ينتزع اسماً واحداً من فم هذا المجرم . كان فى
مراحل التحقيق على هذا الهدوء العجيب الذى ترون ...
ينكر أن لأحد غيره يداً فيما وقع لم يستطع الاستجواب
المدقيق ، ولا القرينة المحرجة ، ولا الحيلة البارعة ، ولا الحجة
القارعة ، أن تستثيره وتستحثه وتخرجه من هذا
الثبات وهذه الابتسامة ! فى حياتى القضائية الطويلة لم أصادف
مجرماً بهذه القوة ولا بهذا الدهاء ... ما من شىء استطاع أن
يهز هذا الشاب الباسم لينهار ويفرغ ما فى جوفه ... جبل
من الجليد محاط بالضباب ... بل حصن من الهدوء الصوفى
يحمى ولا ريب خلفه جماعة من الأعوان وجمعيات من
السفاكين والإرهابيين ... إن النهج الذى سار عليه القاتل
قد أوقع المحققين فى حيرة ... إنه لم يشأ أن يخوض حتى فى

الغرض السياسى الذى من أجله ارتكب الجريمة .. كان
دائماً ، كما تبصرونه الآن ، بعيداً عن كل زهو أو فخر ..
لا تخدعه ألفاظ البطولة ، ولا يحاول أن يلبس عمله أرديه
براقة من عبارات الوطنية أو القومية ، ولا يريد أن يوجد
لفعلته تبريراً أو تفسيراً ، كل ذلك من فرط حرصه حتى
لا يجعل تحت قدميه مزالق .. أو يحفر بلسانه سراديب تنساب
من بين أقواله إلى حصن أسراره . كانت كلماته الوحيدة :
« لقد قتلت متعمداً ، واستحق رأسى المشنقة ، فعجلوا بها ،
ولا تضيعوا وقتى ووقتكم فيما لا طائل وراءه ! » .. هذا
مجرم أدى مهمته ، ويريد أن يمحى سريعاً ويباد ، كما تباد وثيقة
تحوى أمراً يراد إخفاؤه عن العيون ! .. إن إثم هذا الرجل
لا ينتهى بتنفيذ حكم الإعدام فيه ، إنه يموت ليمكن لجرائم
الاغتيال من أن تستمر بعده . إذا فتحتم جمجمة هذا الإنسان
وجدتم سلسلة من الجرائم مقرونه بأسماء الضحايا الذين يعلم
هو متى تدنو ساعتهم ، ويعرف هو اليد التى ستبطش بهم !
يا حضرات القضاة . أمامكم رجل خطر ! ... لا يغرنكم

هذا القناع الحريرى من الوداعة والدماثة .. إنه يخفى تحته نفساً خبيثة لمجرم من أشد المجرمين فتكا ... وسأشرح لكم ما امتلأت به ملفاتى وصفحاتى من تفصيلات عن نفسية هذا المجرم ودوافعه السياسية ! ..

وسكت النائب العام عن المرافعة لحظة ، ليتناول جرعة ماء من كوب فوق منصته بحركة متسقة ، فيها جلال وثقة .. وجعل المتهم يرمقه بنظرات امتزجت فيها الرقة بالسخرية . ومضى النائب العام فى الكلام طول ذلك اليوم ، والكل مصغ إليه ، بآذان مرهفة وعيون مشدوهة ، إلا المتهم . فقد كان النعاس قد دهمه منذ ساعات ، فنام فى مقعده حتى انتهاء الجلسة ، فأيقظه الحراس ليقودوه إلى سجنه .. ثم عادوا به فى اليوم التالى ، ليصغى إلى بقية كلام النائب العام ، فمرافعته لم تنته بعد ، ولايدرى أحد متى تنتهى ..

طفق المتهم يرقب يد النائب تطوى من ملفاته الصفحة بعد الصفحة ، وهو يتمنى أن يطوى مع كل منها يوم من أيامه ، فقد بدأ الضيق يجثم على صدره ، والضجر يأكل من صبره ..

أكثر مما ينبغى .. ما شأنه بكل هذا الذى يسمع ؟ إنه لم يعد من سكان هذه الأرض .. إنه فى طريقه إلى العالم الآخر .. مثله مثل راكب قطار قطع صلته ببلده ويمم شطر بلد بعيد . فإذا أناس يستوقفونه ليسمعوه كلاماً طويلا فى أشياء لاتهمه ولاتعنيه ... ولن تقف البلية عند حد هذا النائب ، فهاهو ذا محاميه عاكف هو الآخر على ملفات أضخم من ملفات الاتهام ، وسيطلب هو الآخر أن يستغرق دفاعه الأيام ... وهو لم يوكل عنه محامياً ، ولم يرد فى قضيته دفاعاً .. ولكنها المحكمة ندبت له هذا المحامى لأن إجراءات المحاكمة تقتضى أن يكون له من يدافع عنه .. رضى أو كره ... إنها العدالة .

هكذا أنفق المتهم الوقت بين إغفاء ويقظة كالإغفاء .. حتى انتبه فى فترة صمت ، لمح فيها النائب قد سكت ليرشف جرعة من الكوب ، ويمسح بمنديله العرق المتفصد من الجبين .. فلم يتمالك ... ونهض يخاطب هيئة المحكمة برفق وأدب وسخرية واستعطاف .. استطاع أن يخلطها كلها ويضعها فى نبرة أرغمت الجميع على الإصغاء :

« يا حضرات القضاة .. ما قصدت أن أقاطع مرافعة النائب العام .. فأنا من أشد المعجبين به المقدرين له ، المصغين بانتباه ومتعة إلى بلاغته ، وإنى لمدرك أن الظرف يستوجب منه هذا الإسهاب .. فالمجنى عليه شخصية كبيرة .. والجمهور مهتم بالقضية ... والمجتمع يتحدث فى بواعثها ومراميها ... فلا بد أن يقف النائب العام بشخصه المحترم يترافع يوماً على الأقل أو يومين ... بمبرر أو غير مبرر ... وأن يجهد نفسه حتى يجف حلقه ويسيل عرقه ليكون جديراً بثناء الناس فى المجالس على همته البالغة ومرافعته الرائعة ... وإنى لمدرك أيضاً أن تفسح المحكمة صدرها .. وأن تطيل إنصاتها وأن تمد فى الحبال ، وأن تعنى بكل ما يقال ، لتظفر بمدح الناس لعدالتها ونزاهتها . بل إنى لأفهم حتى هذا المحامى المنتدب للدفاع عنى ، وهو غارق الآن فى ورقه لأذنيه كالترون . يهيئ كلاماً طويلا لن يقدم عندكم ولن يؤخر ، ولن يبدل من مصيرى ولن يغير ، ولكنه يأمل من ورائه نجحاً عند الناس ومجداً ..

« أنتم جميعاً خدام « العدالة » .. ما فى ذلك ريب عندى ...

ولستم موضع لوم إذا جعلتم « مولاتكم » على رأس موكب فخم يتهادى وسرتم فى ركابها صاخبين مختالين ، بين أنظار الحشد ، متمهلين فى كل خطوة أو متوقفين عند هتاف الجموع ... كل رجائى منكم أن تسرعوا بالموكب قليلا .. ولا بأس عندى بعد ذلك أن تبنوا لأنفسكم صيتاً على أنفاس رجل يموت .. » !

وجلس بهدوء كما نهض .. وخيم صمت بارد على القاعة . قطعه رئيس المحكمة أخيراً بالتفاتة منه إلى النائب العام يدعوه إلى استئناف مرافعته ، دون أن يجرؤ أحد على إبداء تعليق .

واستأنف النائب اتهامه حتى أتمه ، وختمه بطلب الحكم على المتهم بالإعدام طبقاً لنصوص القانون .

واتخذ مكانه ، وقال رئيس المحكمة : الدفاع ..

فوقف المحامى وخلع منظاره ووضعه فوق أوراقه وقال :

« يا حضرات القضاة ! .. إذا كانت مهمة النائب العام هينة كما قال ، فإن مهمتى أنا عسيرة ، لا لأن هدفى إنقاذ رأس قاتل معترف بالجرم ، بل لأن هذا المتهم — لأول مرة على ما أعتقد فى تاريخ الدفاع — يقف من محاميه موقف العدو ..

نعم هذا المتهم هو وحده عدوى فى القضية .. وهو وحده الذى أخشاه ويخشانى ، ويروغ منى وأروغ منه . ويصمت عنى وأصمت عنه .. لقد شكا النائب العام من فم المتهم المغلق وقد اعترف له ، فمن بالشكوى أحق وأولى ؟ . وأنا لم أظفر من هذا الفم بغير قوله ساخراً : « إذا كان لا بد لك من واجب تؤديه فى المحكمة فاقرأ على روحى الفاتحة بصوت مرتفع ! »
هذا متهم يريد أن يموت .. فكان من الطبيعى أن يتخذ من النائب صديقاً ، ومن المحامى خصماً ، ولست أدرى ما الذى جعلنى أصر على منازلته ، وأمضى خفية عنه أبحث وأنقب حتى أهتدى إلى أشياء ستثير حنقه علىّ وغيظه منى ؟ ربما كان الباعث لى هو طلب المجد الذى تحدث عنه ، وتلك الرغبة فى الصيت عند الجمهور . فليكن . لا أحاول الزعم بأن رأس المتهم يهمنى شخصياً .. ولكن إنقاذه سليماً على الرغم منه مسألة تعنينى ..

يا حضرات القضاة .. لن تسمعوا منى دفاعاً عن المتهم ، ولكن ستسمعون قصة .. إليكم الوقائع مجردة ، كما

تتبعتها ، بلا تعليق ولا تنميق ...

من سنوات قليلة خلت كان المتهم طالباً فى كلية الآداب .. وعارفوه فى ذلك الحين يصورونه لنا فى هيئة شاب مجـد ، دمث الأخلاق ، يؤثر العزلة ويميل إلى الشعر .. ولم يكن صاخباً ولا عابثاً ولا مرحاً .. فسلخ أعوامه الأولى دون أن يثير التفات أحد .. حتى كانت السنة الثالثة .. بدأ قليل من إخوانه يشعر بنوع من الزمالة تتوثق بينه وبين طالبة معه فى عين الفصل .. واستمرت هذه الصلة على نحو واضح فى السنة النهائية على الرغم من جهود الفتى والفتاة فى إخفائها .. لقد كانا من طبيعة واحدة .. متحفظة مغلقة .. ولكن الرباط الداخلى بينهما بلغ من القوة والحرارة حد الإشعاع .. كان مجرد وجودهما معاً يشع معنى من معانى الإخلاص والتفانى يثير فى الملاحظ لهما رجفة ودهشة .. ولقد ظهر فيما بعد أن حبهما الصامت بدأت جذوره فى مطلع السنة الأولى يوم تلاقيا فى الدراسة أول مرة ... ولكنه قطع أكثر من عامين ينمو فى الخفاء حتى أينعت زهوره وفضحت فيهما إرادة

الكتمان . . وكان بينهما عهد وهدف . . أن ينجحا ويفوزا معاً بجائزة الآداب ، فيخطبها الفتى إلى أهلها . . . حتى يجد عملا يكفل الرزق فيتزوجها . . واقترب موعد الامتحان النهائى ، فكد الفتى وكدت الفتاة ، وبلغ بهما الكد والجهد مبلغاً أنساهما الجسد وقوة احتماله ، لقد كان الحب يلهب بسوطه هذين الجوادين ليركضا إلى الغاية ! . وبلغ الجوادان الهدف الأول واجتازا الامتحان . ولكن أحد الجوادين سقط . . . سقط مريضاً بذات الرئة . . كانت هى الفتاة . .

ومن هنا تبدأ المأساة . . فقد ربط المرض بينهما بحبال ليست من صنع البشر . . .

وقد أسرع يخطبها إلى أهلها . . ولكن كفاحه فى سبيل شفائها أمر يحير العقول . .

كانت أسرتها رقيقة الحال . . وكذلك أسرته ! . . فصنع المستحيل حتى عثر على وظيفة مدرس فى تلك المدرسة الحرة فى الإسكندرية . وجاهد جهاد الأبطال حتى تمكن من إدخال خطيبته مصحة « حلوان » . . وأوصى الأطباء والممرضين

ألا يدخروا وسعاً فى العناية بالمريضة العزيزة . . فهو على استعداد أن يدفع النفقات ولو من دمه . . وبذل دمه فعلا وعقله وقوته فى إعطاء دروس خصوصية فوق عمله المرهق بالمدرسة ، حتى يجمع مايدفع به ثمن التمريض والعلاج وكان لابد له أن يراها فى كل أسبوع مرة ، ليشجعها ويعينها على احتمال أعباء المرض . فكثرت أسفاره إلى القاهرة . ولكن موارده على الرغم من جهوده شحيحة فلجأ إلى الاقتراض من إدارة المدرسة . . ثم من زملائه المدرسين ثم من المرابين.

لقد صدق النائب العام وهو يورد شهادة ناظر المدرسة بما وقع فيه المتهم من ارتباك مالى . . لو أن الروح التى فى الجسد ترهن فى السوق أو تباع لما تردد هذا الشاب فى رهن روحه أو بيعها لينقذ بثمنها حياة من أحب . . استمعوا إلى خطاب من خطاباته إليها :

« لو استطعت أن أشترى كل نسمة تتنفسينها بسنوات من عمرى ! . . ما أعجز الطب ياعزيزتى ! . . لماذا لاتقاسمينى رئتى ؟ ! لو كان فى مقدورى أن أتنفس لك ؟ . . تجلدى أيتها

العزيزة من أجلي . . . فالهواء الذي يحييني هو الذي يحمل
رائحة وجودك . . يجب أن تعيشي لأعيش ! . . »

وكانت هي بالطبع تجيبه . . . ولكنني لم أعثر على
خطاباتها إليه . . لأنه يخفيها عليّ كما ذكرت . . فكل ماعندي
خطاباته هو إليها وقد أمكنني الحصول عليها . . استمعوا أيضاً
إلى هذا الخطاب منه رداً على رسالة منها :

« تعنفينني على فكرة اللحاق بك ، ساعة تتركين هذا
العالم الأرضي ؟ . . لكأنك تعنفين رجلا مات مختنقاً إذ فقد
هواءه ! . . فيم المقام على الأرض بعدك ؟ وكيف أستطيع ؟
ثقي ياعزيزتي أن السماء قد ربطت روحك بروحي . . وأنك
لحظة تصعدين أصعد ! . . »

وتجري الرسائل هذا المجرى وفي ملفي منها رزمة ضخمة . .
فقد كان — كما ذكر الشهود — يكثر الكتابة في أوقات
فراغه ويلحون على وجهه علامات الاهتمام وأمارات الانفعال
. . لقد كان يكتب إليها خطاباً في كل يوم . . .

وساءت حالها أخيراً . . ودنا منها الموت . . . وكان هو

في عمله بالإسكندرية . . فلما دخلت في الاحتضار . . ورددت
اسمه على شفتيها . . بعث أهلها إليه ببرقية يسألونه الإسراع
بالحضور ، فهي في النفس الأخير . .

وصلت إليه البرقية وهو خارج من أحد فصول الدراسة
فقرأها وامتقع لونه ، وخرس لسانه . . . ومضى إلى حجرة
المدرسين فطرح كتابه ودفاتره . . واستوثق من وجود
مسدسه ، فقد كان أعد العدة لأمره ، وتوقع ختام مأساته . . .
وخشي الوصول إليها بعد أن تلفظ الروح . . فآثر السفر
في الطائرة . . . كل ذلك شهد به إخوانه المدرسون ، وأورده
النائب العام . . وهو بحذافيره صحيح . . .

ركب المتهم الطائرة . . ولم يكن فيها غيره وغير مسافر
آخر لم يلق إليه بالا . . وارتفعت الطائرة في الفضاء . . .
وحلقت وحلق معها فكر ذلك الذاهب إلى الموت . . .
أيدركها قبل فوات الأوان ؟ . . لو أسرعت الطائرة قليلا ! . .
لكن مابالها قد سمرت في الجو ؟ ! . لو كان لها ألف جناح
لما سبقت صوابه الطائر ولا قلبه المتلهف . . وفجأة حدث أمر

عجيب : سمع صوتها جلياً يلفظ اسمه . . فأحس رجفة في بدنه . .
ثم شعر بعينيه تريان شيئاً من مادة لاعلاقة لها بالأرض
شيئاً مرّ كالشعاع الخاطف مخترقاً الطائرة مصعداً فى السما . .
فى تلك اللحظة أيقن أنها أسلمت الروح . . وكان هذا صحيحاً ،
فقد روى لى أهلها أنها صاحت باسمه فى اللحظة الأخيرة . .
وما أشك فى أنه سمع الصوت فى الطائرة فى عين اللحظة ،
وما أشك فى أن الشاب قد تبدل حاله ، وهبط عليه سلام ،
وأحس هو نفسه أنه من أهل الأبدية . . وأنه لاحاجة به
إلى استئناف السفر . . . فما شأنه بجثة هامدة فوق سرير . . .

إن روحها قد مرت به الآن ، وكأنها تدعوه أن يلحق
بها فى الحال . وأخرج الشاب مسدسه ، وصوّبه إلى رأسه
وأطلق . . وهنا تدخل القدر . . وهز الطائرة هزة عنيفة
فانحرف مجرى الرصاصة عن رأس المتهم إلى صدر المسافر
الآخر الجالس خلف مقعده . .

ذعر المتهم فى أول الأمر ، ونسى أمره قليلا . . وبادر
إلى المجنىّ عليه يسعفه . . ولكن ضابط اللاسلكى شعر

بالحركة . . فنهض من مكانه وهرع إلى المصاب الخطير
الشأن . . ورأى المسدس فى يد المتهم . . . فلم يبق عنده ذرة
من شك . . فانتزع آلة الجريمة من يده ووضعه تحت الحفظ
وفطن المتهم إلى الجريمة التى تلصق به ، وفكر لحظة فرأى
طريقها مؤديا إلى ما كان يروم . . وأن الاعتراف بالقتل
العمد يضمن له الموت الذى يبتغيه . .

يا حضرات القضاة . . هذه وثائق فى يدى وليفتح النائب
العام باب التحقيق من جديد . . ليتضح له أن هذا المتهم
قد ضلله ، وأنه يضع فى هذا القفص قلباً مجروحاً كل أمله
الآن أن يدرك قرينه فى السماء ! . . »

وجلس المحامى بهدوء . . . تاركا القضاة والنائب
والحضور غارقين فى شبه ذهول . . ولبث الصمت معرشاً
على القاعة . . إلى أن يسمع فيها نشيج خافت . . فالتفت
القضاة فإذا هم يرون المتهم مطرقاً . . وهو يحاول جاهداً
أن يتجلد ويكتم ما به . . وغالب نفسه إلى أن غلبته ، وخانه
هدوءه الذى كان مثار العجب : وصاح فى قاعة الجلسة

بصوت متهدج :

هذا المحامى كذاب .. مختلق ... كل ما قاله كذب واختلاق .. أنا القاتل .. لقد قتلت عن عمد قتلت عمداً .. اقتلونى .. اقتلونى ! ..

وأجهش بالبكاء ...

وسالت عبراته على صفحة خده .. كأنها تسطر حيثيات الحكم .

ميلاد فكرة !..

— ما هذا الذى يهز جدران رأسى ؟

— فكرة .

— وما تريدين ؟

— الخروج .

— الآن ؟ فى جوف هذا الليل ؟ والناس نيام، والنعاس يغلق منى هذه الأجفان ؟! .

— نعم ، الآن ... إذا لم أخرج الآن فلن أخرج أبداً ..

— ألا ترين أنى أتثاءب ؟ وأنى لا أكاد أتماسك ؟! أو لا تستطيعين انتظاراً حتى الصباح ؟! .

— لا أستطيع انتظاراً .. الآن يجب أن أخرج ...

— ولماذا اخترت لى هذا الوقت الذى أغرق فيه نوماً ؟

— لست أنا التى تختار ، لقد تكونتُ فى رأسك ، كما تكون الجنين فى بطن أمه ، ونضجت للنزول ...

— وكيف لم أشعر بك من قبل ؟ ! . كل ما شعرت به
ان رأسى فارغ كالقربة المثقوبة . .
— إنى أتكون على غير وعى منك . . منذ أمد بعيد . .
والآن قد تكونت ، وحان موعد خروجى .
— خروجك إلى أين ؟ .
— إلى الدنيا ، إلى الورق . . انهض أيها الخامل وضعنى
على الورق ، وانشرنى على الملأ . .
— يالك من مغرورة ! . وماذا يجرى للدنيا من خروج
مثلك الآن ؟ ! .
— من يدرى ؟ . ربما تغير وجهها . . . وربما ازداد
جمالها . . . وربما انقلب أمرها أخطر انقلاب ! .
— بك أنت ؟ ! .
— نعم . . . بى أنا . . . وليست هذه أول مرة أفعل ذلك . .
فهذه الأهرام التى تبصرها من نافذتك إنما هى فكرة . . .
وهذه الكهرباء التى تضىء حجرتك كانت فكرة . . وهذا الراديو
الذى يسمعك صوت العالم هو فكرة . . وهذه النهضات التى

ظهرت فى الأمم بدأت فكرة . . وهذه الأديان التى سمت بالبشر
برقت فكرة . . وهذا الفن الذى نعمت به الإنسانية لمع
فكرة . . . بل كل حضارة الآدميين على الأرض وليدة فكرة .
وكل الفرق بين نوع الإنسان وفصائل الحيوان ، أن الفرد من
الإنسان يلد الفكرة ، والفرد من الحيوان لا يلد الفكرة . . .
فقم واطرح عنك الكسل ، وافرح لأن فى رأسك فكرة . .
— وهل أنا وحدى الذى فى رأسه فكرة ؟ . . . أليست
هنالك فكرة فى كل رأس من رؤوس هؤلاء الملايين من
الناس ؟ . .
— نعم . . ولكن قليلا جداً من بينهم من تخرج له
فكرة . . .
— إذن قيمتك أن تخرجى . .
— نعم ، وأعيش . . . وهذا أندر أحداث الأرض . .
وإذا كان لك إلمام بالحساب ، فتناول قلماً وورقاً وأنت ترى
العجب . . إن على الأرض أكثر من ألف مليون شخص . .
فإذا فرضت أن مليوناً واحداً فقط ينتج فى كل قرن من الزمان

فكرة ، لكان فى العالم مليون فكرة حية فى كل مائة سنة . . . وهذا لا يحدث أبداً . . فأن القرن الذى ينتج عشر فكرات تعيش وتنفع الناس ، يسمونه عصر النهضة ، أو العهد الذهبى للبشرية ! . .

— لا يكفى إذن أن تخرجى من رأسى ! . . .

— لا . . . ليس هذا بكاف ، إن الأفكار التى تخرج كل يوم من رؤوس المفكرين والشعراء والفنانين والعلماء كثيرة العـــدد . . . واليوم ، على الخصوص . قد تضاعف محصولها . . . لأن صناعة التفكير قد انقطع لها فى العالم عدد وافر من محترفى الفكر . . . يملأون الصحف والكتب أفكاراً ، يزعمون كلهم أنها كونت من زبدة الخلود . . وهى فى أغلبها لم تصنع إلا من شىء كزبدة الفطائر التى تذوب فى الأفواه مع قدح الشاى كل صباح ! . . .

— كنت أحسب المهم مجرد خروجك من الرأس ! . .

— المهم هو حياتى بعد ذلك . .

— ربما كان المهم أيضاً ليس مجرد حياتك . . بل

طول هذه الحياة .

— صدقت ! . فقد أحيا فقط سنة واحدة ، كما تحيا البدعة أو « الموضة » . . . وهذا لى أسخف أنواع الحياة ! . .

— كم سنة تريدين أن تعيشى إذا خرجت من رأسى ؟ . .

— أكثر منك أعواماً على كل حال . . أضعاف حياتك على الأقل . . إنى أتمنى أن أراك فى التراب ، قد نخر عظمك ، وأنا فى تمام صحتى واكتمال روعتى ! .

— لعنة الله عليك وعلى تمنياتك . . .

— أو لا يسرك أن أعيش بعدك ؟ .

— بل يسرنى أن أعيش أنا بعدك ولو ساعة ! . . .

— وماذا تصنع بعمرك ، وقد ماتت أفكارك ؟ . ما طعم حياة الأب الذى فقد أبناءه ، وعاش إلى آخر دهره وحيداً ؟!

— هذا حقاً مؤلم . . . وتلك مصيبة من ينجب الأبناء . وما دام فى إمكانى أن أمنع ميلادك . . . فلماذا لا أفعل ؟ . إن فى خروجك متاعب . .

— وفى خروجى أيضا مزايا ! .

— ما هى هذه المزايا ؟ .

— أن ترانى مخلوقاً تام التكوين يشبهك ، ويذكرك بعيوبك ، ويعيش أمامك مرآة لطباعك ، وخزانة لصفاتك وفضائلك واستمراراً لوجودك، وقد يعجب الناس وينفعهم فيرضى غرورك .

— حقاً غرورنا وحده هو الذى يسمح لمثلك بالخروج .

— ولهذا يحسن بى الانتفاع بهذه الطبيعة فيكم . . . هيا أخرجنى ! . . .

— ولكنك لم تخبرنى ما مصلحتك أنت فى الخروج؟!.

— ما أحمق سؤالك ! . أتستطيع أن تسأل خلية عن مصلحتها فى الحياة ؟ . إن الرغبة فى الحياة ملتصقة بذات وجودنا ! .

— أنت إذن موجودة الآن فى رأسى ؟

— طبعاً . . . وهاأنذى أصيح بك وألح طالبة الخروج إلى الحياة .

— انتظرى إذن قليلا ، حتى أحضر قلماً وورقاً . .

— حذار أن تبطىء . . .

— وما الضرر ؟ .

— أحسن أنفاسى توشك أن تخمد . . ونورى يوشك أن يخبو . لقد ناقشتنى طويلا واستنفدت قواى . . ونهكتنى وأتعبتنى قبل أن أولد .

— يا لسوء الحظ ! . . القلم نسيت موضعه . . أما الورق فلا يوجد الساعة غير هذه الورقة على المائدة . . وهى ملفوفة بها الفطائر التى أحضرتها لفطورى . . أما وقد أيقظتنى من نومى اللذيذ ، فلا أقل من أن أبدأ بالطعام . . فلا نفع لرأس يمتلىء ، إذا كانت المعدة خالية . . تجملى بالصبر إذن، وانتظرى حتى نفرغ من أمر الفم ثم نعنى بأمر العقل، وثق أنى سأسرع ولا أجعلك تنتظرين طويلا ، وأثناء المضغ نبحث لك عن القلم الضائع ، وهاأنذا أبحث . . وهاهو ذا قلم فوق الخوان . . لا بأس الآن من إخراجك أيتها الفكرة . . هلمى . . تكلمى . . اخرجى . . ياللعجب ! . . مالك ؟ . ما هذا الصمت ؟ ما هذا السكوت ؟ أين أنت ؟ . أين ثرثرتك التى أيقظتنى ؟ . أيتها

الفكرة ؟. انطق ! . لا توقفى اللقمة فى حلق ! أين أنت ؟. هل ذهبت ؟ . هل مت ؟ . واأسفاه ! .. لقد مت قبل أن تولدى !.

نعم ، ما من شك فى أنها ماتت فى رأسى قبل أن تولد .. أترانى أبطأت عليها ؟ . أتراه ذنبى أم ذنبها ؟ . ما علينا . فلتذهب هى إلى أعماق جهنم ! وأنا إلى نهاية الأكل .. ثم إلى فراش النوم! . ليست هذه أول مرة تصنع بى ما صنعت، ولست أنا أول من يحدث له هذا .. إنما هى فكرة تولد وتموت .. أو تموت ولا تولد ، كغيرها من ملايين الأفكار التى تهز رؤوس الملايين من الناس ، ملايين المرات فى ملايين اللحظات !

وجه الحقيقة

— كيف عرفت أنى أقطن هذا النزل ؟

قلتها وأنا أقود صديق وناشر كتبى إلى حجرتى ، وقد سمعت صوته بالباب يسأل صاحبة النُّزُل عنى ويذكر لها أوصافى قبل أن يذكر اسمى ، كأنما قدر فى نفسه أنى تسميت فى هذا البيت باسم مستعار . . .

ولم يكد يدخل الحجرة حتى أرسل نظرات مستطلعة إلى كل شىء حوله ، وأبصر حقائبى الثلاث على ظهر خزانة الملابس وبعض الكتب على رأس الفراش ، ونظر إلى الجراموفون المفتوح فوق مائدة صغيرة ، والقلم الرصاص الملقى بين أوراق منثورة على مكتب فى أحد الأركان ، وإناء من البلور الأزرق فيه بضع زهرات . فوقف لحظة يهز رأسه ، ثم جلس على مقعد قريب وهو يقول :

— هذا أنت حقيقة . . . تلك بعينها حياتك غير المستقرة

أخبرنى إلى متى التنقل من نزل إلى نزل ومن فندق إلى فندق
وإخفاء مقرك عن الجميع ، حتى عنى ؟ لقد قابلنى اليوم أحد
الناس وسألنى عن بيتك فلما أظهرت جهلى صاح دهشاً :
« رجل يشار إليه بالبنان ، ولا يعرف له حتى الآن عنوان . . »

ـــ وأنت كيف عرفت عنوانى ؟

ـــ تبعت خطاك ذات ليلة . . أرجو أن تغتفر لى هذا
الفضول . . إنما أردت . .

والتفت إلى المكتب والأوراق ثم أدار وجهه شطر باب
مغلق يفصل بينى وبين الحجرة المجاورة وابتسم ، وقال وهو
يتنسم شيئاً بمنخاره الطويل :

ـــ إنى أشم هنا رائحة قصة تكتب !

ـــ هنا قصة حقاً ، ولكنها لم تكتب .

ونظرت على الرغم منى إلى باب الحجرة المجاورة
وتنفست . . . ولحظنى الناشر ، فأسرع صائحاً فى لهجته الحماسية
المسرفة وإشاراته التمثيلية التى كلها تهويل : إنك قد كتبتها ،
إنا قد ظفرنا بكتاب العام ! إننا قد نشرنا كتاب العام !

فوضعت إصبعى على شفتى أطلب إليه الصمت وأرهفت
سمعى ناحية الباب الفاصل ، وإذا ضحكة رقيقة قد بلغت
مسامعنا فنظرت إلى صاحبى فإذا على وجهه إشراقة ومرت
لحظة ولم نسمع شيئاً . فالتفت صديقى إلى كالمأخوذ :

ـــ صدقت !

ثم أشار برأسه الأصلع وشعيراته القائمة فى وسطه
كأنه رأس هدهد ، إلى ذلك الباب ، وسأل فى همسة :

ـــ من هى ؟

فقلت فى غير وعى :

ـــ ماذا يهم ؟

ـــ حقاً . مادامت تستطيع أن توحى إلينا !

ـــ آه أيها الناشر ، بل أيها الخاسر ! أنت الذى يحيل أجمل
عواطفنا الإنسانية إلى هراء يباع ويشترى . نعم ، لو علمت أن
كل ما أكتب لك وأنشر عندك منذ شهور ، إنما خرج من
خصاص هذا الباب ! لقد كذبت عليك يوم قلت لك إن
« موزار » وحده هو الذى يرعى الآن فنى بقيثارته

السحرية الصافية . ضحكاتها الصافية هى أيضاً تلك الطفلة التى لم تجاوز العشرين . عهدى بقلبى دائما لا يعلق إلا من تقاربنى أو تكبرنى فى العمر . لأول مرة فى حياتى أهتم لأمر طفلة تصغرنى بكل هذه الأعوام . أتلك علامة الهرم ؟ .

والتفت إلى مرآة خزانة الملابس ، ونظرت إلى تلك التجاعيد التى برزت سطورها على صفحة الوجه ، كأنها إنذار رسمى من الزمن . ومضيت :

ـــ لا . لن أكتب شيئاً . لقد سئمت هذه الحياة . أريد مرة واحدة أن أحب للحب .

فصاح بى :

ـــ تحب للحب ! ؟ . وأنا أغلق حانوتى ، وأبيع مطابعى ! وأوقف مجلتى !

ـــ اطمئن . لن يحدث ذلك أبدا . وا أسفاه . لقد خرج أمرى من يدى منذ أمد طويل . إنى لم أخلق « مستهلكا » للسعادة ، بالمعنى الاقتصادى للكلمة ، إنما أنا « منتج » فقط لهذا الصنف فى السوق .

ـــ طباخ « السم » لا يذوقه . .

ـــ إن المأساة الكبرى فى حياتى اليوم أيها الصديق ، هى أنى لم أعد أفرق بين العالم الخارجى الحقيقى وبين ذلك العالم الوهمى الذى أصنعه بالمداد والورق وأدفع به إليك وإلى غيرك من تجار « الأحلام » وسماسرة « الأوهام » ! إنى لم أتبين ذلك إلا اليوم . إنى منذ سمعت من خلال هذا الباب صوت تلك « العصفورة » الجميلة التى يقولون لى هنا إنها « امرأة » وهديل ضحكاتها الصغيرة ، وأنفاسها الخفيفة ، وسعالها اللطيف ، وأنا لا أنفك أقيم لها فى رأسى تماثيل من ذهب لا « لزبائنى » ولكن لنفسى . وهنا المصيبة . منذ شهور وأنا أدير « الجراموفون » لها هى . وأوقن أنها لا بد مأخوذة مثلى « بموزار » بل إنى قد سمحت لنفسى أحيانا أن أتصور أنها تتساءل : « من هذا الجار ؟ » ولقد كان بابى مفتوحا ذات يوم وكنت فى ناحية من الحجرة فأبصرتها تمر فى الدهليز ، فلما اقتربت من بابى رفعت عينيها تنظر نظرة المتطلع . . .

عفواً . . . كلمة «المستطلع» هذه لا تثق صحتها كثيراً ، فهى
من تقدير ذلك الرأس الذى يخلط الآن الصدق بالكذب .
على أنى لم ألبث أن قلت كعادتى من شعاع هذه النظرة العابرة
سبائك من الأحلام . كل ذلك دون أن أكلمها أو أعترض
سبيلها . أهو خوف من مواجهة الحقيقة ؟ أم استغناء عنها
بما لى الذى فى رأسى ؟ لست أدرى .

إلا أنى جعلت أرقب حياتها . ووجدت أحيانا ما كاد
يخيب ظنى . فهى امرأة متزوجة . وقد رأيت زوجها فتى من
أجمل الفتيان ، وهى مثال للكسل والتراخى والفراغ ، فهى
فى نظرى كأنها «دوقة» لا تستيقظ فى الصباح إلا قبيل الظهر
ولا تنام إلا فى الثانية بعد منتصف الليل . حياتها تسير على وتيرة
واحدة . نهوض متأخر ووقت ينفق فى الزينة ومشاغل نسوية
تافهة ثم غداء تتناوله بمفردها . لماذا بمفردها ؟ هذا ما عجبت
له أول الأمر .

ثم يأتى زوجها من عمله عند العصر مع بعض أصدقائه
فيلعبون الورق أو يتجادلون فيما لا طائل تحته حتى المساء

فيخرجون جميعا ولا تعود الزوجة مع زوجها إلا إذا انتصف الليل

ولقد أدهشنى فى الليل أمر : هو الصمت العميق فى الحجرة
عقب عودة المرأة إلا من صوت كتاب تقلب صفحاته من حين
إلى حين . وقد كنت أقوم أحيانا نصف قيام فى فراشى فأبصر
نور حجرتها المجاورة ينفذ إلىّ من خصاص الباب . ولا يسكت
حفيف الكتاب وينطفىء النور إلا فى الهزيع الأخير من
الليل . وقد أيقنت من ذلك أن الرجل يقرأ كثيرا وأن
امرأته لا شك قد نامت منذ ساعات وتركته مستيقظا تحت
«الأباجوره» ، غير أنى أنكرت كيف أنى لم أسمع مرة واحدة
صوت كلام . كأنما الغرفة لا تضم غير شخص واحد . ولا
أكتمك أنى وجدت ومازلت أجد متعة وسروراً فى تتبع
أحوالها . ولعل هذا يفسر لك سر انزوائى فى هذا النزل ، لا
أخرج إلا قليلا .

إنى أنظر الآن إلى حياتى وهى تجرى فى ذلك
النهر الضيق الصغير الذى تجرى فيه حياتها فلا أسأم ، بل
إنى لأرى أيامى الآن عريضة عميقة زاخرة بأحداث وتفاصيل

ومشاعر ومناظر، قد لا يكون لها وجود إلا فى رأسى، ومع ذلك... ما الضرر؟ ولقد أردت يوما أن أعرف عنها أكثر من ذلك بوسائل أخرى، فقلت لصاحبة النزل:

«إنك حقا ياسيدتى تقدمين لبطنى أطيب الطعام وتعدين غرفتى أحسن إعداد، ولا ينقصك إلا أن تقدمى كذلك مادة الغذاء لقصصى وكتبى فتؤدى لى وللأدب أجل خدمة»

فحملقت العجوز فى وجهى وكأنها لم تفهم. فأبنت لها عن قصدى وسألتها أن تخبرنى بأخبار القاطنين معى، علّى أجد فيها بغيتى فلم يبد منها تحمس لهذه المهمة وأدركت أن تقديمها إلىّ طبقاً جيداً من «البفتيك» هو عندها أجدى وأجل من تقديم «موضوع» كتاب خالد!! وعندئذ فهمت أن تلك التيجان التى يضعها على رؤوسنا أمثالك من الناشرين والمعجبين إنما هى شىء لا يبهر غيرنا نحن وغير أولئك الغافلين الذين استطعنا أن نخدر أحلامهم بدخان الكلام العبق الكثيف.

ولكنها مع ذلك تحدثت إلىّ. وعلمت منها أن تلك الزوجة الصغيرة قد اقترنت منذ عامين بهذا الشاب الجميل دون أن

يعلم بذلك أمه المريضة بالقلب. وأن أمه كانت تريده لإحدى قريباتها الموسرات. وهو يخشى على أمه التى يحبها أثر الصدمة لو علمت بهذا الزواج. فهو من أجل ذلك قد وضع زوجته فى هذا النزل. وهو ما يزال يقطن عند والدته يؤاكلها فى الغداء كعادته ويبيت عندها دائما كأن لم يحدث قط شىء. عجبا!! إذن الصغيرة هى التى تقرأ وحدها فى الليل!! نعم ولقد صادفت أنا حقيقة الزوج عائدا مع زوجته ذات ليلة. فما إن أوصلها إلى الباب حتى تركها وعاد إلى بيت والدته. إن مظهر هذا الزواج عجيب إن هذا الفتى أقرب فى تصرفاته إلى الخليل مع خليلته ومع ذلك فإن تلك الزوجة تحبه حباً عظيما وإنها تتألم، وقد بثت صاحبة النزل بعض همها. إن هذا الزواج الذى بدأ بالحب قد انتهى اليوم من ناحية الفتى إلى شىء من الفتور، وهى تخشى أن يكون هناؤها قد انقضى، وأن يكون شأنها شأن الوردة التى لا تعيش أكثر من يوم!

ولقد جاءتنى صاحبة النزل ذات مساء وأنا أدير «الجرامفون» وحملت إلىّ «اسطوانة» قالت إنها للسيدة

المجاورة وهمست فى أذنى أن السيدة تحب سماعها لأنها تذكرها بحال كحالها. فقلبت «الأسطوانة» فى يدى فإذا هى أنشودة للمغنية الباريسية «داميا» مطلعها:

«فقدت شبابى بفقد حبى.»

فلم أكتم خيبة أملى لتفاهة هذه الأغنية إلى جانب تلك الكنوز من الموسيقى العليا التى تسمع من حجرتى. ولكنى مع ذلك أطلقتها من «فونوغراف» مرة واحدة من أجلها. ولم أجسر على إعادة الكرة. إنى مازلت أحتفظ بأسطوانتها هاهى ذى فى الخزانة الصغيرة، غير أنى لا أحب أن أديرها لأنى لا أرى من الذوق أن أذكرها كثيراً وهى فى مقتبل الشباب بهذا المصير المخيف الذى تخشاه. لم أجرؤ على ذلك. وقد تقول إن هذه الأغنية تخيفنى أنا وتحزننى لأنها تذكرنى أنا أيضاً بحالى. وهى فى حقيقة الأمر لا تنطبق إلا علىّ. وربما كان فى هذا شىء فى الحقيقة.

قد تسألنى بعد ذلك أيها الصديق: ما موقفى الآن بين كل هذا؟ لا أستطيع أن أجيبك! . كل ما أعرف

أن هذه المرأة الصغيرة لها على اليوم وعلى عملى تأثير واضح، وأن الصفاء الذى يجرى بين السطور التى تنشر لى هذه الأيام إنما ينبع من ضحكاتها الصغيرة الرقيقة التى تشبه ضحك الأطفال. إنى أفكر فى أمرها كثيراً، ويخيل إلى أنها على الرغم من تفاهة حياتها وسخف المتصلين بها لابد أن يكون فى فى نفسها جانب ذو قيمة. أتراها تعى وتصغى إلى كل تلك الموسيقى الجيدة التى تنطلق من حجرتى؟ إن ما يخيب أملى فيها أنها لا تجلس منفردة ساعة واحدة. فأن لزوجها أصدقاء من حثالة الناس لا ينقطع لهم وابل طول النهار، يحيطون بها كما يحيط الذباب بشىء حلو، وينجذبون إليها كما ينجذب الإنسان إلى كل شىء جميل فلا يتركونها لحظة منفردة سواء حضر زوجها أو غاب وليس عندهم كما قلت إلا لعب الورق والكلام فى مراقص الليل والكباريهات، التى يقودون إليها هذه الفتاة كل ليلة، فلا تعود كما ذكرت لك إلا بعد منتصف الليل.

أمر واحد ينقذ هذه المرأة فى نظرى، هو مطالعتها الليلية الطويلة فهى عندى كماء مقدس يطهر كل شخصيتها

الفارغة ، ويغسل كل ذلك السخف الذى يبدو فى حياتها بالنهار . هذا أيضاً أخشى فيه مواجهة الحقيقة ، وأخاف أن أعلم يوماً أن هذه القراءات الطويلة إنما هى فى « ميشيل زيفاكو » و « أرسين لوبين » وأنواع أخرى قد لا أعرفها من حثالة الكتب .

إنى أشفق على هـذه الطفلة من أشياء كثيرة ، وأعرف تلك الأخطار التى تهدد الزوجة المهملة ، ولقد سمعت بأذنى حواراً دار بينها وبين صديق لزوجها انفرد بها يوماً وقدم إليها مبلغاً من المال ظن أنها فى حاجة إليه. فصاحت به: « إنك تنسى الاحترام الواجب لى ! » ولقد أعجبنى عندئذ موقفها ، ورأيت منها نفساً تجاهد جهاد الأبطال لتنجو من مزالق هذا الطريق الذى تدفعها إليه الظروف . لعلك تعجب من خوفى عليها هـذا الخوف . نعم ، لكم أتمنى لو أجعل من هذه الصغيرة إنساناً ذا قيمة ، وأن أوجه تيار حياتها إلى وجهة سامية، وأن يستكشف فيها زوجها يوماً كنزاً لا يقوم بمال ، لو أن مثله

يستطيع أن يستكشف شيئاً . إن لم يفعل ، فلعلها هى التى تفتح عينيه وتنشئه نشأة أخرى . تلك مشاعرى نحوها . إن عواطفنا لا يمكن أن تكون إلا جميلة نبيلة نحو من يوحى إلينا بشىء جميل نبيل . لقد فكرت كيف أستطيع أن أهذب هذه الصغيرة من حيث لا تدرى . ووددت لو أستطيع أن أكتب إليها . فقد تنفع كتاباتى هذه النفس المسكينة . ولعل مخاطبتى إياها تخرج من نفسى نزوة قد تنفعنى وتنفعك بما لم نكن نحلم به يوماً . ولقد سطرت لها فعلا هذه الرسالة أأقرؤها لك ؟ استمع : « سيدتى ، أيمكننى أن أسألك معروفاً؟ اسمحى لى أن أكتب إليك من حين إلى حين . لا تردى على رسائلى . أعيديها إلىّ فقط بعد برهة من الزمن . رسائلى هـذه وحدها هى التى قد يكون لها عندى كل القيمة. لماذا اخترتك بين مئات لهذه المهمة الغريبة أولا : لست أنا الذى اختار تلك التى تستطيع أن تسيل نفسى على الورق ولا بد لنفسى أن تسيل لأن بضاعتى التى أتاجر فيها هى إحساسى. إن دموعى وضحكاتى ومصائبى تدر أحياناً علىّ الذهب، وربما شيئاً من المجد . هكذا

خلق ذلك الكائن العجيب اللعين الذى يسمونه : الفنان. أما شخصك وماله عندى من احترام فلا دخل له فى الموضوع بحال . . . لم أرسل إليها هذا الكلام لحسن الحظ . فقد قلت فى نفسى بعد ذلك : ماذا يعنى هذه المرأة من أمر الذهب الذى سأجنيه ، والمجد الذى قد تضحك من مجرد اسمه ؟ ومن يضمن لى أنها تحمل خطابى المعنى الذى أردته أنا ؟ مرة أخرى شعرت أنى لم أعد أميز الحدود الفاصلة بين عالم الحقيقة وعالم الخيال. إن هؤلاء الأشخاص الحقيقيين الذين يعيشون إلى جوارى راضين بحياتهم التى أسميها تافهة ، هم ولا شك هازئون بى إذا علموا أنى أريد أن أغير مجرى أمامهم إنهم ليسوا مخلوقات تتحرك على الورق طبقاً لمشيئتى ، وتتصرف تبعاً لمنطق . ولكنهم ناس لا سبيل لى على حياتهم. ينبغى لى أن أترك هؤلاء الناس وشأنهم . ألا ترى معى أيها الصديق أنه ينبغى لى أن أترك هؤلا الناس وشأنهم ؟!

فأفاق صاحبى من تأثير ذلك الحديث الطويل وقال :

— كيف تتركهم وشأنهم ، والقصة لم تتم ؟

— لا أريد أن تتم . يجب أن يقف الأمر عند هذا الحد.

— نحن لم نعرف بعد عن هذه المرأة إلا ما صورته لك مخيلتك .

— يكفينا هذا . إنها المخاطرة أن نعرف صورتها الحقيقية . مخاطرة باهظة الثمن. فالزم الصمت . ولا تسكت تلك القيثارة التى تسيل على أنغامها نفسى . فإن الطمع قد يذهب عنك حتى تلك السطور التى كنت تنالها منى . . .

وفى اليوم التالى ، فى نفس الساعة ، عاد إلى صديق الناشر وجلس أمامى فى نفس المجلس من حجرتى ، واطرق قليلاً ثم قال لى بصوت خافت :

— هل من جديد ؟

وانبعثت من عينه نظرة إلى الباب الفاصل ، فبادرت قائلا :

— إنها ليست هنا . لقد خرجت منذ قليل فى صحبة تلك الزمرة .

فاطمأن فى كرسيه وأرسل صوته على طبيعته طالباً إلى

أن أمضى فى الحديث عنها .

— ماذا تريد أن تعلم منى أكثر مما علمت ؟ إن حياتى الآن جميلة على الرغم من . . كل شىء . وإنك لترى وتلحظ أن إنتاجى غزير وخيالى متقد ، ولا ينبغى لى أن أغير هذه الحياة الآن . . . إنى على كل حال غير قدير على ذلك على الرغم من . . ولكنى مع ذلك . .

آه أيها الصديق ! يجب أن أفضى إليك بشىء خطير . . .

لقد كذبت عليك أمس إذ قلت لك إنى لم أكلمها بعد . الحقيقة أنى خاطبتها .

— خاطبتها ؟

— منذ يومين . دخلت المطبخ أطلب فنجان من القهوة فرأيتها فى « روب دى شامبر » يابانى إلى جانب الحوض تضع أزهاراً صغيرة فى إناء وتصب عليها ماء من الصنبور . وتحادث صاحبة المنزل العجوز بالإيطالية . فانحنيت برأسى انحناءة خفيفة محييا . ورأيت أن أنتهز الفرصة للكلام . فبادرت أسأل فى دهشة « سيدتى . أتعرفين الإيطالية ؟ » فقالت العجوز : « أتكلمها

فقط ولا أكتبها ولا أقرؤها ، أما السيدة الصغيرة فتعرفها تمام المعرفة » وعندئذ أجابت الصغيرة : « نعم إنى تعلمتها فى المدرسة وأعرفها تمام المعرفة » . هنا لست أدرى ماذا دفعنى أن أقول للصغيرة : « أتأذنين لى فى أن أكلفك ترجمة رسالة صغيرة أريد أن أبعث بها إلى موسيقى إيطالى كان قد وضع ألحاناً لرواية لى ؟ » فقالت للفور فى أدب : « بكل سرور . أكتب الرسالة بالفرنسية وأنا أنقلها إلى الإيطالية » . ولم أستطع أن أحادثها أكثر من ذلك . فقد حملت آنيتها وحيت برأسها تحية خفيفة كلها تحفظ وانصرفت إلى حجرتها . وتركتنى فى مكانى كالتمثال ، وأفقت من دهشتى وعدت فى الحال إلى حجرتى وقد نسيت أن أطلب القهوة التى كنت قد ذهبت إلى المطبخ من أجلها . ولكن أى قهوة ؟ لقد أحسست أنى ظفرت بغنيمة لا تقدر بمال . إن بينى وبينها اليوم صلة لا أقول وثيقة ، ولكنها على أى حال تبشر بخير . فهى ستقوم لى بخدمة . لقد وعدت . وعندئذ يجب أن أقابل الجميل بالجميل . وجعلت أفكر فيما ينبغى أن أقدم إليها أو أصنع من أجلها شكراً على خدمتها .

أهدى إليها كتاباً من كتبى . أو أشترى لها تحفة صغيرة تذكاراً
لما قامت به من أجلى . أو أن أدعوها . . . كلا ، هذا كثير ولم
لا أدعوها إلى عشاء ساهر مع زوجها وصاحبة النزل ؟ كل شىء
عندئذ جائز . وإن المجال متسع أمامى وليس لى إلا أن أختار .
المهم هو أنها قد بدأت بتقديم خدمة لى وجلست من فورى
إلى مكتبى أكتب الرسالة بالفرنسية ، ولكن أى رسالة ؟ إن
هذا الموسيقى الموهوم ليس إيطاليا . الواقع أن هناك موسيقياً
مصرياً أرسل إلىّ عدة صفحات من نوتة موسيقية خاصة
برواية لى لأطلع عليها وأبدى رأيى فيها . ولكن ماذا يمنع
من افتراض أن هذا الرجل إيطالى لا يعرف غير الإيطالية ؟
فلأكتبن الرسالة وأدفعها إلى الصغيرة لترجمها كما اتفقنا .
وتناولت القلم الرصاص وخططت على الورق خطاباً بسيطاً
برىء اللهجة . لست أنكر أن عواطفى تركت بعض الأثر بين
السطور ، ولكن ذلك شىء لا يلمحه أحد غيرى . إن مجرد
تصورى أن الصغيرة ستقرأ هذا الكلام جعل نفسى تخرج
عن طوعى وتدخل متلصصة فى هيئة عبارة أو عبارتين تسيلان

رقة وعذوبة . إنى لن أريك هذا الخطاب الآن . ومع ذلك
انتظر . لم لا أقرؤه عليك الساعة ؟ إنه كما قلت لك خطاب
برىء ، وليست لى الجرأة أن أكتب أكثر من ذلك . وليس
فيما أرى من حسن اللياقة وحسن التصرف أن أكتب غير
هذا . ها هو ذا . اسمع :

«عزيزى المايسترو . . وصلنى جزء من الألحان الموسيقية
التى وضعتها لروايتى ، وقد دهشت قليلا إذ وجدت الغناء فيها غالباً
على الموسيقى الخالصة ، إن الغناء ليس إلا الصوت الآدمى وإن
الصوت الآدمى الجميل ليستطيع أن يسحر الناس بنفسه من غير
حاجة إلى ملحن ، لقد سمعت ضحكات قصيرة لغادة صغيرة لا تقل
فى عذوبتها وفى رقتها عن ضحكات الطفل الإلهى «موزار» فى
قطعة «المينويتو» ولكن الأوركستر فى التلحين هو الجانب
الذى يشرح ويفسر العمل بأكمله ، وإنى لأرى التفسير
الموسيقى الخالص قليل المقدار فى هذه الصفحات التى بعثت
بها إلىّ ، فى إمكانك مع ذلك أن ترتاب فى صحة حكمى ، إنى
لست أنكر أن بعض الأنواع ولا سيما الأشكال والقوالب

ما زالت تفلت من نطلق إحساسي الموسيقي، يجب أن يبلغ
الإنسان في الثقافة ذروة هائلة، وفي سلامة الذوق درجة
عالية، حتى لا يخطيء القيم الصحيحة في الفن والجمال، إن
الجمال إله لا يكشف قناعه لكل الناس، إن رأيك الأخير
مع ذلك هو ما سأنزل عنده، ولك تحيتي».

وطويت هذه الرسالة مصحوبة بالنوتة الموسيقية حتى لا
تظن الجميلة أن الأمر من أساسه مختلق، ووضعت كل هذا
داخل غلاف كبير من الورق الشفاف. وفتحت بابي أنتظر
مرورها في الدهليز أو الردهة فأسلمها ذلك. وشغلت بعدئذ
بعملي وفنوغرافي. أسمع تارة أنغام موزار الراقصة في جو
الحجرة وأقول في نفسي مبتهجاً: «إنها الآن ولا شك تسمع خاشعة
باسمة»، وحمستني كل هذه الأفكار في ذلك اليوم للعمل
فأمسكت قلمي وغرقت في سيل وحي غزير، وملأت صفحات
من كتاب جديد أعمل فيه، ومقالات مطلوبة للمجلات. وإذا
الساعة التاسعة تدق، وإذا الصغيرة قد خرجت من حجرتها
بملابس الخروج وفي زينة زادتها جمالا على جمال.

ويممت شطر الباب الخارجي، فأسرعت واتجهت
إليها بالمظروف قائلا لها: «إن الرسالة داخل
هذا»، وشكرتها. فتناولت مني المظروف وعادت به إلى
حجرتها فوضعته فيها وخرجت لسهرتها، ومكثت أنا في مكاني
من حجرتي طول الهزيع الأول من الليل أكتب وأنتظر أوبتها
حتى كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. فعادت في
وعدها المتأخر، وسمعتها تدخل حجرتها. على أني لم ألبث
أن دهشت وخفق قلبي سروراً! ذلك أني أصغيت في هدوء
الليل، فإذا بي أسمع صوت الغلاف الشفاف وله خشخشة
واضحة يفتح في عجلة ولهفة عقب اجتيازها عتبة بابها، وليس
من شك لدي في أن هذا أول ما فعلت عند دخولها حجرتها
فهي لم تخلع ملابسها ولا معطفها ولا حتى قبعتها، كأني بصبرها
النافد لا يريد أن ينتظر ثانية. وكأني بها مدفوعة بحب
استطلاع غريب، أو لعلي أنا أسرف في الخيال والظن
والافتراض وقولي الآن كما ذكرت لك لا يعتمد عليه كثيراً،
فما أبعد المحب عن تصور الحقيقة كما هي... إن في رأسي كل

محب يد مغرضة تصور الاشياء كما يريد قلبه أن تكون . على أن الواقع الذى لا غلو فيه هو أنها فضت غلافى وهى بملابس الخروج ، إذ لم تمض أى فترة بين اجتيازها عتبة حجرتها وبين سماعى خشخشة الغلاف ، وأصغيت وأنا مملق الأنفاس ، ومضت لحظة سكون ماشككت فى أنها اللحظة التى استغرقتها مطالعة الرسالة ، وإذا بى أسمع الخشخشة من جديد كأنا الرسالة تدس فى غلافها ، ثم وضع كل هذا فى مكانه وسكن الصوت إلا من صوت خطواتها فى الحجرة وصوت خزانة ملابسها تفتح وتعلق وصوت خلع ملابسها ودخولها فراشها

وأرهفت الأذن على أسمع ما ينبئنى بعودتها إلى المظروف لتعمل . لتبدأ فى الترجمة . فلم أسمع غير حركة تقلب صفحات جريدة أو كتاب ، فعلمت أنها تقرأ فى سريرها تحت « الأباجور » قبل نومها كالمعتاد . فظللت ساهرا حتى رأيت نورها يطفأ من خصاص الباب الفاصل ، وكانت الثانية بعد منتصف الليل ، ولم يبق لى دافع على السهر . . .

فطويت ورقى وأطفأت نورى ونمت . وفى الصباح

استيقظت سعيدا راضيا ، وازتديت ثيابى وأنا أصفر بفمى و ترنم وأكلم المرآة بصوت خافت . فهى مازالت نائمة وأستار نوافذها مازالت مسدلة . وخرجت لشأنى كعادتى ، ورجعت عند الظهر فى ميعادى . ولم أكد أدخل غرفتى حتى وقع بصرى على مظروفى فوق مكتبى ، فأسرعت إليه أفحصه . فإذا كل شىء فيه : الرسالة الفرنسية والنوتة الموسيقية كما كانتا . وليست هناك ترجمة وسمعت العجوز صاحبة النزل صوت أقدامى فجاءت إلى مسرعة تقول : « إن السيدة الصغيرة تعتذر وتأسف لعدم استطاعتها القيام بما طلبته منها » . فلم أجد ما أجيب به غير قولى : « لا بأس » . وذهبت المرأة وتركتنى وقد تهدم كل ذلك البنـــاء الذى شيدته فى رأسى فى مثل لمح البصر . .

وما بلغت فى حديثى هذا الحد ، حتى رأيت وجه صديق الناشر قد تغير ، وعلته كآبة مظلمة . . . ورأى سكوتى عن الكلام فقال من حلق جاف :

— وبعد . ؟

— لا شيء انتهى الأمر كما ترى . على أني فكرت طويلا
وتساءلت : لماذا تصرفت الصغيرة هذا التصرف ؟ لماذا على
الأقل لم تسلمنى مظروفى يدا بيد كما سلمته لها ، وتعتذر إلىّ
بنفسها ؟ أكثر من ذلك : لقد صادفتها بعدئذ فى الدهليز
فكانت تميل عنى بوجهها وتجعل كأنها لم ترنى ، وتسرع فى
الابتعاد دون أن تشير بكلمة إلى موضوع الرسالة ، بل دون
أن تلفظ حرفا أو تحنى رأسها بتحية . لقد انقطعت كل صلة
بيننا ، حتى تلك الصلة الرسمية العادية التى يفرضها الأدب
واللياقة . . .

وهنا مد صديقى يده إلىّ قائلا :

— أرنى هذه الرسالة !

فناولته إياها ، فأمعن النظر فى عباراتها . فقلت له :

— أتراها فهمت منها . . . ؟

— مؤكد . . إن عبارتك التى تصف بها ضحكات الغادة
واضحة وضوح النهار . . .

— لكن . . لماذا ظنت أنى أعنيها هى بالذات ! ؟ إن

هذه الصفات شىء استكشفته أنا سرا ولا يعلم به غيرى
وغيرك . فكيف تعلم هى أن لها ضحكات رقيقة ! !

— ياعزيزى ! أهنالك امرأة تجهل مواضع الحسن فيها ؟ !

— آه ياصديقى ! إنى كنت سىء التصرف فى هذا الأمر
وقد ظهرتُ فى عينها مغازلا من النوع المبتذل .

فأطرق صاحبى مفكرا وقال :

— شىء يؤسف له ! وعلام عزمت ؟

— على الرحيل .

قلتها فى هدوء وحزن فرفع صاحبى فى الحال رأسه :

— الرحيل ؟ !

— مامن حل إلا هذا . هذا هو الختام الطبيعى لما حدث .
إن من الغلطات ما ندفع ثمنه غالياً . لقد قلت لك بالأمس
ينبغى أن يقنع أمثالنا بعالم الأوهام فلم تقتنع بقولى . هاهى ذى
الخطوة الأولى خارج عالمنا أتعجبك هذه النتيجة ؟
إن إقامتى الآن فى هذا النزل أصبحت مستحيلة . فإن من الشاق
على نفسى أن يذهب اعتبارى من نفس هذه الصغيرة . وهى بعد لم

تعد توحى إلىّ بشيء. هاهى ذى الأوراق بيضاء، ولم أكتب
شيئاً منذ وقع هذا الأمر. لقد أنذرت العجوز بأخلائى
الغرفة آخر هذا الشهر، فاغتمت ووجمت وحاولت أن تعرف
السبب، فأبديت عذراً واهياً، فسكتت على مضض. ولكنى
أنا أشد منها غماً وحزناً على فراق هذه الغرفة. لن أنسى أنى
كتبت فى ظل هذه المرأة الصغيرة صفحات جميلة. إنما يخيفنى
هو أن ينتهى كل هذا الوهم الجميل بهذه السرعة، وأن قلبى
الذى لا يستيقظ إلا مرة كل عشر سنوات يعود هذه المرة إلى
صمته وظلامه وهو لم يكد يصحو ويخفق ويفرح. وكم فى
العمر من عشرات السنين؟ وما أمر انتظار أعوام أخرى أجد
فيها وقد لا أجد تلك التى تهز نفسى وتوحى إلى! إنك أيها
الصديق لن تتصور مقدار أسفى وهمى. أتظن أنى مستطيع
الكتابة هذا العام فى غرفة أخرى وقد اعتدت الحياة فى كنف
هذه الصغيرة؟ كم من الزمن ينبغى أن يمضى قبل أن أروض
نفسى وقلبى على العمل فى مكان آخر لا أسمع فى جوه تلك
الضحكات!؟ تحدثنى نفسى أحياناً أن أبقى على الرغم من كل

شيء. إن حياتى الآن كما قلت لك الساعة جميلة على الرغم من كل
شيء... وحتى إن لم يكن الأمر كذلك فأنى على أى حال غير
قدير... نعم! يا أخى إنى أحس تماماً أنى غير قدير على تغيير
هذه الحياة الآن. ولكن.. مع ذلك.. ينبغى لى أن أرحل.
إن نفسى ليست هينة علىّ، وإن كرامتى فوق كل اعتبار.
فلنذهب أيها الصديق.. ينبغى أن تنصح لى بذلك لقد أنذرت
بالإخلاء، وإنى أعرف نزلا آخر.. وكفى...

وأطرق صديق، ولم يجب...

***

ومرت الأيام. ورحلت إلى نزل آخر، هادىء كل
الهدوء. ليس فيه غير حجرتين. إحداهما التى قطنتها والأخرى
يقطنها من زمن شيخ وقور كان فى شبابه، كما عرفت عنه،
سكيراً مدمناً، ثم تاب وأناب وأطلق لحيته وأمسك بسبحته
وأصبح عضواً بارزاً فى جمعية لمنع المسكرات. وكان بيننا
جدار غير سميك أسمع من خلاله سعاله، وأقول فى نفسى:
«سبحان الذى قلب الضحكة الرقيقة سعالا خشناً!»

نعم . . لم تزل الضحكة الرقيقة ترن فى أذنى ، وصورة المرأة الصغيرة تتراءى لعينى . . لم أزل فى ظل ذلك الحسن أعيش وفى كنف الجمال المتدثر بطهره وبراءته وطفولته أعمل . وفى ذكرى الجوار القديم بلحظاته السماوية أستمطر الوحى والإلهام . . .

وجاءنى صديق الناشر فى مقرى الجديد . وما كاد يجلس ويمد منخاره الطويل إلى جدار الحجرة المجاورة متشمماً متنسماً ، حتى سمع صوت السعال الخشن ، فأشاح بوجهه فى الحال صائحاً :

— أعوذ بالله !

— نعم أيها الصديق . هذا ماصرنا إليه ! . .

قلتها متنهداً . وعاد صديق ينظر إلى جدار الحجرة المجاورة مشمئزاً وهو يقول :

— أظن خيالك هذه المرة لن يستطيع أن يصنع شيئاً بهيجاً من هذه الحقيقة المرة ! . .

فقلت له :

— ومتى كنت أستطيع أن أصنع من الفسيخ شربات . . ؟

فقال باقتناع :

— حصل . جارتك الجميلة صاحبة الضحكة الرقيقة . . لقد عرفتها ياسيدى . . .

— عرفتها ؟ ! .

لفظتها فى صيحة دهشة وفرح وحب استطلاع . . .

فانطلق صاحبى يقول :

— نعم . . عرفتها وجالستها ورأيتها رؤية العين . اسمع ياسيدى الحكاية كما حدثت بالضبط : دعانى تاجر الورق الذى أعامله إلى سهرة فى « كاباريه » وهو رجل ملىء مرح « بحبوح » فما كدنا نفرغ من العشاء حتى أقبل شاب وسيم يصحب شابة فى مقتبل العمر ، أجلسها إلى جوار التاجر الموسر وهمس فى أذنه بكلام ثم انصرف . وطلب لها صاحبى التاجر مشروباً ثم جعل يغازلها تارة ويحادثها تارة حتى تطرق الحديث إلى سكنها . فقالت : « كل شىء إلا السكن » فهى تقطن حجرة

فى نزل لا غبار عليه . صاحبته شديدة الحرص على سمعته .
وسكانه فى غاية الجد . وجارها الملاصق بالذات رجل محترم
الهيئة كأنه فيلسوف أو أستاذ ، لا تدرى . . ولكنه يخيفها
بنظراته الغريبة ، ويصدع رأسها طول الوقت بموسيقى جدية
من «فنوغرافه» لا تفهم منها شيئاً . فما من مرة سمعت رقصة
تانجو أو رومبا أو سمبا . . بل موسيقى تكسر الدماغ وتغم
النفس لعنة الله عليه من جار سمج ! . . هكذا قالت
بالحرف ، ولا تؤاخذنى ! . . وعندئذ تدخلت وذكرت لها اسم
النزل وعنوانه ، فأذهلتها المفاجأة وقالت : « كيف عرفت ؟ »
فقلت لها كالمخاطب لنفسى : « هو أنت ؟ ! » واستدرجتها فى
الحديث وعرفت كل شىء عنها وكل ما خفى عليك منها . إنها
ليست إيطالية ياعزيزى ، بل هى نوع من تلك الأنواع المختلطة
المولدة الغامضة الجنسية التى توجد فى مصر ولا يعرف لها
أصل ولا فصل . قالت إن أبويها المرحومين عاشا فى
ازمير زمنا ، ثم نزحا إلى بلد آخر لا تذكر اسمه . أما هى فقد
ولدت فى إحدى حارات القاهرة ، وليس لها لغة أصلية . بل

هى وجدت ونشأت فى بيئة ترطن جملة لغات بالسماع
والتواتر دون المعرفة الأكيدة . فهى تتكلم العربية والرومية
والإيطالية والفرنسية ، ولا تتقن إحداها قراءة أو كتابة .
وهذا هو سر إعادتها الغلاف الذى أرسلته أنت إليها . قالت :
تصوروا هذا الجار المجنون الذى يرسل إلىّ نوتة موسيقية
وخطاباً فرنسياً لأترجمه إلى الإيطالية ؟ أكان يظننى
معلمة فى مدرسة ؟ ! » . أما مطالعاتها الليلية
فلم تكن فى كتاب أدبى أو حتى فى قصة من القصص ،
بل كانت فى برامج سباق الخيل الذى اعتادت المراهنة فيه بما
يصل إلى يدها من نقود . ثم فى مجلات الأزياء و«الموضات»
المصورة . وهى تعيش بمفردها لأنها وحيدة مقطوعة ، لا
أهل لها ولا زوج . أما ذلك الذى زعمت أنه زوجها فهو ولا
تؤاخذنى « قوادها » . وقد اخترعت حكاية زواجه وميته
عند والدته المريضة بالقلب الخ ! لتموه على البوليس وعلى
صاحبة النزل حتى لا تزدريها أو تطردها . . . وكانت تتكلم
وتضحك ضحكتها التى تسميها رقيقة وهى تمد فمها «بسيجارة» إلى

فم التاجر الموسر لتشعلها من سيجارته . وأنا أتأمل وجهها
المطلى بألوان المساحيق . ولكن الطلاء الثقيل لم يستطع أن
يخفى آثار جدرى قديم قد أحدث ثقوباً عميقة فى الأنف
والخدين والجبين قلت لى: إنها حسناء .. فجعلت همى أن أبحث
عن ذلك الحسن . لا ياعزيزى . إنه خيالك . . . كان ولاشك
أقوى من كل طلاء يمكن أن تكتشفه أبرع مصانع التجميل!
وكاد الليل ينتصف فمال التاجر على أذن المرأة وهمس لها بكلمات
فأشارت برأسها علامة الإيجاب والقبول. وبادرت تلم أطراف
ثوبها استعداداً للقيام ، ولم تنس أن تخرج مرآتها من حقيبتها
وتعيد صبغ ماانطمس بفعل الشراب والتدخين من أحمر
شفتيها . . . وغمز لى صاحبى التاجر بعينه غمزاً فهمت معناه
ومرماه ، فأشرت له بيدى علامة النفى والزهد ، ونهضنا .
وشكرته على سهرته ودعوته وتركته عند الباب لأنصرف إلى
بيتى . ومضى هو والمرأة الصغيرة وذراعها تحت إبطه إلى
سيارة تنتظر ، لتحملهما إلى حيث يكملان السهرة على الوضع
المتفق عليه . . .

وانتهى صديق الناشر من كلامه والتفت إلىّ ... ولست
أدرى: هل لحظ شحوب وجهى ؟ ويبدو أنه انتظر منى تعليقاً
على حديثه . ولكننى خفت أن أتكلم فيخوننى صوتى .
فأطرقت وتشاغلت بقلم فى يدى جعلت أعبث به على ورقة
أمامى . إلى أن أحسست نظراته تلاحقنى وتكاد تكشف
ما خلته قد ظهر على وجهى من انفعالات مخفاة . ولم أجد
بدآ من أن أتفوه بشىء ، فتحاملت على نفسى آخر الأمر ،
وحاولت جاهداً أن أجعل صوتى هادئاً ، وأن أجرد نبراته
من كل غضب وعتب وحزن ومرارة . ولكننى على الرغم
من كل ذلك لم أشعر بنفسى إلا وأنا أصيح به :

— لماذا جئت تقول لى هذا الكلام ؟! .

فهرس

صفحة

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٠٧٦٦ / ٢٠٠١

I.S.B.N 977 - 01 - 7268 - 5